

سورة البقرة

مدنية إلا آية ، إحدى وثمانين ومائتين فقد نزلت بمضى في حجة الوداع ، وقيل هي آخر القرآن نزولا ، وغالب السورة نزل أول الهجرة ، وهي أطول سور القرآن ، كما أن أقصرها سورة الكوثر ، وأطول آية في القرآن هي آية المدين (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) الخ وأقصرها قوله والضحي . وقوله والفجر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم - (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)

الإيضاح

(الم) هي وأمثالها من الحروف المقطعة نحو (المص والمر) حروف للتنبيه كالأ ويا ونحوها مما وضع لإيقاظ السامع إلى ما يلي بعدها ، فهنا جاءت للفت نظر المخاطب إلى وصف القرآن الكريم والإشارة إلى إعجازه وإقامة الحجة على أهل الكتاب إلى نحو ذلك مما جاء في أثناء السورة .

وتقرأ مقطعة بذكر أسمائها ساكنة الأواخر فيقال : ألف . لام . ميم ، كما يقال في أسماء الأعداد . واحد . اثنان . ثلاثة .

(ذلك الكتاب) الكتاب اسم بمعنى المكتوب وهو النقوش والرقوم الدالة على المعاني ، والمراد به الكتاب المعروف للمؤمنين صلى الله عليه وسلم الذي وعده الله به لتأييد رسالته وكفل به هداية طلاب الحق وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم .

وفي التعبير به إيماء إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بكتابة شيء سواه . وعدم كتابة القرآن كله بالفعل حين الإشارة إليه لا يمنع الإشارة ، ألا ترى أن من المستفيض الشائع في التخاطب أن يقول إنسان لآخر : هلم أملل عليك كتابا والكتاب لم يوجد بعد .

(لا ريب فيه) الريب والريبة الشك، وحقيقته قلق النفس واضطرابها، سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل منها الطمأنينة، وقد جاء في الحديث «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة».

والمعنى — أن هذا الكتاب لا يعتريه ريب في كونه من عند الله، ولا في هدايته وإرشاده، ولا في أساوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحد أن يأتي بكلام يقرب منه بلاغة وفصاحة — وإلى هذا أشار بقوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وارتباب كثير من الناس فيه، إنما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عى بصيرتهم، أو عن التعنت عنادا واستكبارا واتباعا للهوى أو تقليدا لسوامهم. (هدى للمتقين) الهدى بالنظر إلى المتقين، هو الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة والتوفيق للعمل بأحكامه، إذ هم قد اقتبسوا من أنواره وجنوا من ثماره، وهو لغيرهم هدى ودلالة على الخير، وإن لم يأخذوا بهديه وينتفعوا بإرشاده.

وكون بعض الناس لم يهتدوا بهديه لا يخرجهم عن كونه هدى، فالشمس شمس وإن لم يرها الأعمى، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه ذو المِرَّة.

والمؤمنين: واحد من متق من الاتقاء وهو الحجز بين الشئيين، ومنه يقال اتقى بترسه أى جعله حاجزاً بين نفسه ومن يقصده، فكأن المتقى يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه — حاجزاً بينه وبين العقاب الإلهى.

والعقاب الذى يتقى ضربان دنيوى وأخروى وكل منهما يتقى بانقاء أسبابه.

فعقاب الدنيا يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله فى الخليقة، وعدم مخالفة النظم التى وضعها فى الكون، فانتقاء الفشل والنخذلان فى القتال مثلاً يتوقف على معرفة نظم الحرب وفنونها وآلاتها كما يشير إلى ذلك قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) كما يتوقف على القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده.

وعقاب الآخرة يتقى بالإيمان الخالص والتوحيد والعمل الصالح واجتناب ما يضاد

ذلك من الشرك واجتناب المعاصي والآثام التي تضر المرء أو تضر المجتمع .
والمؤمنون في هذه الآية هم الذين سمت نفوسهم ، فأصاب خبرها من الهداية
واستعدادا لتلقى نور الحق والسعي في مرضاة الله بقدر ما يصل إليه إدراكهم ويبلغ
إليه اجتهداهم .

وقد كان من هؤلاء ناس في الجاهلية ، كرهوا عبادة الأصنام ، وأدركوا أن
خالق الكون لا يرضى بعبادتها ، كذلك كان من أهل الكتاب ناس يؤمنون
بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات
وأولئك من الصالحين .

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

الإيضاح

(الذين يؤمنون بالغيب) الإيمان تصديق جازم يقترن بأدعاء النفس
واستسلامها ، وأمارته العمل بما يقتضيه الإيمان ، وهو يختلف باختلاف مراتب
المؤمنين في اليقين .

والغيب ما غاب عنهم علمه كذات الله وملائكته والدار الآخرة وما فيها من
البعث والنشور والحساب .

والإيمان بالغيب هو اعتقاد بوجود وراء المحسّات متى أرشد إليه الدليل
أو الوجدان السليم ، ومن يعتقد بهذا يسهل عليه التصديق بوجود خالق للسموات
والأرض منزّه عن المادة وتوابعها ، وإذا وصف له الرسول العوالم التي استأثر الله بعلمها
كعالم الملائكة ، أو وصف له اليوم الآخر لم يصعب عليه التصديق به بعد أن
يستيقن صدق النبي صلى الله عليه وسلم .

أما من لا يعرف إلا ما يدركه الحس فانه يصعب إقناعه ، وقلما تجد الدعوة إلى
الحق من نفسه سبيلا .

(ويقيمون الصلاة) الصلاة في اللغة الدعاء كما قال تعالى (وصلّ عليهم) ودعاء المعبود بالقول أو بالفعل أو بكليهما يشعر العابد بالحاجة إليه استنداراً للنعمة أو دفعاً للنقمة . والصلاة على النحو الذى شرعه الإسلام ، من أفضل ما يعبر عن الشعور بعظمة المعبود وشديد الحاجة إليه لو أقيمت على وجهها . أما إذا خلت من الخشوع والخضوع فإنها تكون صلاة لا روح فيها وإن كانت قد وجدت صورتها وهى الكيفيات المخصوصة ؛ ولا يقال للمصلّى حينئذ إنه امتثل أمر ربه فأقام الصلاة ، لأن الإقامة مأخوذة من أقام العود إذا سواه وأزال اعوجاجه ، فلا بد فيها من حضور القلب فى جميع أجزائها واستشعار الخشية ومراقبة الخالق كأنك تنظر إليه كما ورد فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ولما للصلاة من خطر فى تهذيب النفوس والسموبها إلى الملكوت الأعلى أبان الله تعالى عظيم آثارها بقوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وجعلها النبى صلى الله عليه وسلم عماد الدين فقال « الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام » . وقد أمر الله بإقامتها بقوله (وأقيموا الصلاة) وبالحفاظة عليها وإدامتها بقوله : (الذين هم على صلاتهم دائمون) وبأدائها فى أوقاتها بقوله (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) وبأدائها فى جماعة بقوله (واركعوا مع الرّاكعين) وبالخشوع فيها بقوله (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) .

(ومما رزقناهم ينفقون) الرزق فى اللغة العطاء ، ثم شاع استعماله فيما ينتفع به الحيوان ، وجهرة المسلمين على أن كل ما ينتفع به حلالاً كان أو حراماً فهو رزق ، وخصه جماعة بالحلال فقط .

والإنفاق والإنفاد أخوان ، خلا أن فى الثانى معنى الإذهاب التام دون الأول ، والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد وذوى القربى ، وصدقة التطوع .

وفى قوله : مما رزقناهم إيماء إلى أن النفقة المشروعة تكون بعض ما يملك

الإنسان ، لا كل ما يملك ، وإلى تعليم الإنسان مبادئ الاقتصاد وحب ادخار المال وإن من يجد في نفسه ميلا إلى بذل أحب الأشياء إليه وهو ماله ابتغاء رضوان الله ، وقيامًا بشكره على أنعمه ، رحمة لأهل البؤس والعوز — كان من المتقين المستعدين لهدى القرآن ، وكثير من الناس يصلون ويصومون ، ولكن إذا عرض لهم ما يدعو إلى إنفاق شيء من المال في سبيل الله ، كأن تدعو الحاجة إلى إنفاقه في مصلحة من مصالح المسلمين أو منفعة عامة لا تقوم إلا بالبذل — أعرضوا ونأوا ولم تطاوعهم أنفسهم على بذل شيء منه .

وإنما كان القرآن هدى للمتقين الذين هذه أوصافهم ، لأن الإيمان بالله والإيمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى فيها كل عامل جزاء عمله — يهيئ النفوس لقبول هديه والاعتباس من أنواره .

وبين ذلك بعضهم بقوله لأن في الإيمان النجاة ، وفي الصلاة المناجاة ، وفي الإنفاق زيادة الدرجات ، وبعضهم بقوله لأن في الإيمان البشارة ، وفي الصلاة الكفارة ، وفي الإنفاق الطهارة .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ (٤) .

الإيضاح

(والذين يؤمنون) روى ابن جرير عن ابن عباس أن المراد بالمؤمنين هنا من يؤمنون بالنبي والقرآن من أهل الكتاب ، وبالمؤمنين فيما قبلها من يؤمنون من مشركي العرب .

(بما أنزل إليك) هو القرآن الذي يتلى ، والوحي الذي لا يتلى ، وهو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم من أعداد الركعات في الصلاة ، ومقادير الزكاة ، وحدود

الجنائيات ، قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وقال (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)

ولابد من معرفة ذلك تفصيلا فلا يسع المؤمن جهل ما علم من الدين بالضرورة .
والانزال هنا بمعنى الوحي ، وسمى إنزالا لما في جانب الألوهية من علو الخالق على المخلوق ، أو لإنزال جبريل له على النبي صلى الله عليه وسلم لتبليغه للمخلق كما يقال (نزل به الروح الأمين) .

(وما أنزل من قبلك) هو التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة ، فيؤمنون بها إيماناً إجمالياً لا تفصيلياً .

(وبالأخرة هم يوقنون) الدار الآخرة هي دار الجزاء على الأعمال — والإيمان بها يتضمن الإيمان بكل ما ورد فيها بالنصوص المتواترة كالحساب والميزان والصراط والجنة والنار .

واليقين هو التصديق الجازم الذى لا شبهة فيه ولا تردد ، ويعرف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره فى الأعمال ، فمن يشهد الزور أو يشرب الخمر أو يأكل كل حقوق الناس يكن إيمانه بهما خيالا يلوح فى الذهن لا إيماناً يقوم على اليقين ، اذ لم تظهر آثاره فى الجوارح واللسان ، وهو لا يكون إيماناً حقاً الا اذا كان مالكا لزام النفس مصرفاً لها فى أعمالها .

والإيمان على الوجه الصحيح يحصل من أحد طريقين :

- (١) البحث والتأمل فيما يحتاج الى ذلك كالعلم بوجود الله ورسالة الرسل .
- (٢) خبر الرسول بعد أن تقوم الدلائل على صدقه فيما يبلغ عن ربه ، أو خبر من سمع منه بطريق لا تحتمل ريباً ولا شكاً وهى طريق التواتر ، كالعلم بأخبار الآخرة وأحوالها ، والعالم العلوى وأوصافه ، وعلينا أن نقف عند ذلك فلا نزيد فيه شيئاً ولا نخلطه بغيره مما جاء عن طريق أهل الكتاب أو عن بعض السلف

بدون تمحيص ولا تثبت من صحته ، وقد دونه المفسرون في كتبهم وجملوه من صلب الدين ، وهو ليس منه في شيء .

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

الإيضاح

الفلاح الشق والقطع ، ومنه سمى الزارع فلاحاً لأنه يشق الأرض ، والمفلح الفائز بالبقية بعد سعي في الحصول عليها واجتهاد في إدراكها ، كأنه انفتحت له وجوه النظر ولم تستغلق عليه .

والشار إليه بأولئك في الموضعين واحد وهم المؤمنون من غير أهل الكتاب والمؤمنون منهم ، وكرر الإشارة للدلالة على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من هاتين الفضيلتين الهدى والفلاح ، وأن كلا منهما كاف في تمييزهم به عن سواهم ، فكيف بهما إذا اجتمعتا .

والتعبير بقوله (على هدى) يفيد لغة التمكن من الهدى وكال الرسوخ فيه ، كما يتمكن الراكب على الدابة ويستقر عليها ، وقد جاء في كلامهم : ركب هواه ، وجعل الغواية مراكبا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال المتقين الذين يؤمنون بالغيب وبما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله ، وبين ما آل إليه أمرهم من الهداية والفلاح

أعقب هذا بشرح حال طائفة ثانية وهم الكفرة الفجرة ، وأبان أنه قد بلغ من أمرهم في الغواية والضلال ألا يجدى فيهم الإنذار والتبشير وألا تؤثر فيهم العظة والتذكير ، فهم عن الصراط السوى ناكبون ، وعن الحق معرضون ، فالإنذار وعدمه سيان ، فماذا ينفع النور مهما سطع ، والضوء مهما ارتفع ، مع من أغمض عينيه حتى لا يراه . بغضا له ، وعداوة لمن دعا إليه ، لأن الجهل أفسد وجدانه ، فأصبح لا يميز بين نور وظلمة ، ولا بين نافع وضار .

وقد جرت سنة الله في مثل هؤلاء الذين مروا على الكفر أن يختم على قلوبهم فلا يبقى فيها استعداد لغير الكفر ، ويختم على سمعهم فلا يسمعون إلا أصواتا لا ينفذ منها إلى القلب شئ ينتفع به ، ويجعل على أبصارهم غشاوة ، إذ هم لما لم ينظروا إلى ما في السكون من آيات وعبر ، ولم يبصروا ما به يتقون الخطر ، فكأنهم لا يبصرون شيئا وكأنه قد ضرب على أبصارهم بغشاوة .

وقد حكم الله عليهم بالعذاب الأليم في العقبى ، وقد العز والسلطان والخزى في الدنيا كما قال (لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم) .

الإيضاح

(إن الذين كفروا) الكفر لغة ستر الشئ وتغطيته ، وقد وصف به الليل كقوله * في ليلة كفر النجوم غماها *

والزرع كقوله تعالى (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) من قبل أنهم يغطون الحب بالغراب ، ثم استعمل في كفر النعم بعدم شكرها ، وفي الكفر بالله ووحدايته وصفاته وكتبه ورسله .

والمراد بالذين كفروا هنا من علم الله أن الكفر قد رسخ في قلوبهم حتى أصبحوا غير مستعدين للإيمان ، بحجودهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به بعد أن

بلغتهم رسالته بلاغا صحيحاً وعرضت عليهم الدلائل على صحتها للنظر والبحث فأعرضوا عنها عناداً واستهزاء .

وسبب كفرهم :

(١) إما عناد للحق بعد معرفته ؛ وقد كان من هذا الصنف جماعة من المشركين واليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأخبار اليهود .

(٢) وإما إعراض عن معرفته واستكبار عن النظر فيه ، والمعرضون عن الحق يوجدون في كل زمان ومكان ، وهؤلاء إذا طاف بهم طائف الحق لوووا رؤوسهم واستكبروا وهم معرضون ، وفيهم يقول تبارك وتعالى (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ؟) سواء اسم بمعنى مستوكماً قال تعالى (إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) والإنذار إخبار بشئ مع التخويف بما يترتب على فعله إن كان مذموماً أو تركه إن كان محموداً ، ويراد به هنا التخويف من عذاب الله وعقابه على فعل المعاصي .

(لا يؤمنون) جملة موصحة لتساوى الإنذار وعدمه في حقهم لافي حقه صلى الله عليه وسلم ولا في حق الدعاة إلى دينه ، إذ هم يدعون كل كافر إلى الدين الحق ، لا فرق بين المستعد للإيمان وغير المستعد .

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) الختم والطبع والرين بمعنى واحد ، وهو تغطية الشيء مع إبعاد ما من شأنه أن يدخله ويمسه ، والمراد بالقلوب العقول ، وبالسَّمْعَ الأسماع ، وبالأبصار العيون التي تدرك المبصرات من أشكال وألوان ، والغشاوة الغطاء .

المعنى — ضرب الله مثلاً لحال قلوب أولئك القوم وقد تمكن الكفر فيها حتى امتنع أن يصل إليها شيء من الأمور الدينية النافعة لها في معاشها ومعادها وحيل بينها

وبينه — بحال بيوت معدة لحلول ما يأتى إليها مما فيه مصالح مهمة للناس لكنه منع ذلك بانلخم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله — فقد حدث فى كل منهما امتناع دخول شيء بسبب مانع قوى ؛ وكذلك حدث مثل هذا فى الأسماع فلا تسمع آيات الله المنزلة سماع تأمل وتدبر ، وجعل على الأبصار غشاوة فلا تدرك آيات الله المبصرة فى الآفاق والأنفس الدالة على الإيمان ؛ ومن ثم لا يرجى تغيير حالهم ولا أن يدخل الإيمان فى قلوبهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه أولا من أخلص دينه لله ووافق سره علنه وفعله قوله ، ثم ثنى بذكر من تحضروا الكفر ظاهراً وباطناً . وهنا ثلث المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبت الكفرة ، لأنهم ضموا إلى الكفر استهزاء وخداعاً وتمويهاً وتدليساً ، وفيهم نزل (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ونزل (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) وقد وصف الله حال الذين كفروا فى آيتين وحال المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وفضحهم واستجھلهم واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم ودعاهم صماً بكما عمياً وضرب لهم شنيع الأمثال . فنعى عليهم خبثهم فى قوله : ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر : ، ومكرهم فى قوله : يخادعون الله والذين آمنوا : ، وفضحهم فى قوله : وما هم بمؤمنين ، وفى قوله : وما يخدعون إلا أنفسهم ، وفى قوله : فى قلوبهم مرض ، واستجھلهم فى قوله :

وما يشعرون ، وفي قوله : ولكن لا يشعرون ، وفي قوله : ولكن لا يعلمون ، وتهكم
بفعلهم في قوله ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ودعاهم صابراً بما عمياً في قوله :
صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، وضرب لهم شنيع الأمثال في قوله : مثليهم كمثل الذي
استوقد ناراً الخ وفي قوله : أو كصيب من السماء الخ .

الإيضاح

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) أصل ناس أناس ويشهد له
إنسان وإنسى ، وسما بذلك لظهورهم وتعلق الإناس بهم ، كما سمي الجن جنات
لاجتماعهم واختلافهم .

من يقول الخ هم أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل كعبدالله
ابن أبي بن سلول وأصحابه وأكثرهم من اليهود ، ولهم نظراء في كل عصر وقطر .

واليوم الآخر — هو من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل
الجنة الجنة وأهل النار النار ، وخصوا بالذكر الإيمان بهما إشارة إلى أنهم أحاطوا
بجانبى الإيمان أوله وآخره ، وهم لم يكونوا كذلك ، إذ كانوا مشركين بالله لأنهم
يقولون عزيز ابن الله ، وجاحدين باليوم الآخر إذ قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة
وقد حكى الله عبارتهم ليبين كمال خبيثهم لأن ما قالوه لو صدر عنهم لأعلى وجه الخداع
والنفاق منع ما هم عليه لم يكن ذلك إيماناً لاتخاذهم الولد واعتقادهم أن الجنة لا يدخلها
غيرهم ، فما بالك بهم إذا قالوه تمويهاً على المؤمنين واستهزاء بهم .

(وما هم بمؤمنين) أى وما هم بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين الذين
يشعرون بعظيم سلطان الله ، ويعلمون أنه مطلع على سرهم ونجواهم ، إذ هم كانوا
يكتفون ببعض ظواهر العبادات ، ظناً منهم أن ذلك يرضى ربهم ، ثم هم بعد ذلك
منغمسون في الشرور والمآثم من كذب وغش وخيانة وطمع إلى نحو ذلك مما حكاه
الكتاب الكريم عنهم ونقله الرواة .

(يخادعون الله والذين آمنوا) الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه لتحول بينه وبين ما يريد ، وأصله من قولهم : خدع الضبّ إذا توارى في جحره ، وضب خادع إذا أوهم حارسه الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر .

والخدع هنا من جانب المنافقين لله وللمؤمنين ، والتعبير بصيغة المخادعة للدلالة على المبالغة في حصول الفعل وهو الخدع ، أو للدلالة على حصوله مرة بعد أخرى ، كما يقال مارست الشيء وزاولته ، إذ هم كانوا مداومين على الخدع ، إذ أعمالهم الظاهرة لا تصدقها بواطنهم ، وهذا لا يكون إلا من مخادع لا من تائب خاشع .

وخداعهم للمؤمنين بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر للاطلاع على أسرارهم وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود ، ودفع الأذى عن أنفسهم .

(وما يخدعون إلا أنفسهم) إذ ضرر عملهم لاحق بهم ، فهم يغترون أنفسهم بالأكاذيب ويلقونها في مهاوى الهلاك والردى .

(وما يشعرون) يقال شعر به يشعر شعورا : علم به وفطن ، والفطنة إنما تتعلق بخفايا الأمور ، فالشعور لا يكون إلا في إدراك ما دق وخفى من شيء حسى أو عقلى .

وقد نفى الشعور عنهم في مخادعتهم لله ، لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم على أقوالهم ولم يراقبوه في أفعالهم ، ولم يفكروا فيما يرضيه ، بل جروا في رأيهم على ما ألفوا وتعودوا فهم يعملون عمل المخادعين وما يشعرون ، فإذا عرض لهم زاجر من الدين يحول بينهم وبين ما يشتهون — وجدوا لهم من العاذير ما يسهل أمره ، إما بأمل في المغفرة ، أو تحريف في أوامر الكتاب ، لما رسخ في نفوسهم من عقائد الزيغ التي يسمونها إيمانا ، وهم في الحقيقة مخدوعون ، وعن الصراط السوى ناكبون .

والمشاهد أن الإنسان إذا همّ بعمل وناجى نفسه ، وجد كأن في قلبه خصمين مختصمين ، أحدهما يميل به إلى اللذة ويسير به في طريق الضلال والغواية ، وثانيهما يأمره بالسير في الطريق القويم وينبأه عن اتباع النفس والهوى ، ولقد جاء في كلامهم عن المتردد « فلان يشاور نفسه » .

ولا يترجح عنده جانب الشر إلا إذا خدع نفسه وصرفها عن الحق ، وزين لها اتباع الباطل ، وإنما يكون ذلك بعد مشاورة ومذاكرة تجول في الخاطر وتهجس في النفس ربما لا يلتفت إليها الإنسان ولا يشعر بما يجول بين جنبيه .

(في قلوبهم مرض) القلوب هنا العقول ، وهو تعبير معروف عند العرب ، كأنهم لاحظوا أن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذي هو السائق إلى الأعمال كاضطرابه حين الخوف أو اشتداد الفرح .

ومرضها ما يطرأ عليها مما يضعف إدراكها وتعقلها لفهم الدين ومعرفة أسرارها وحكمه ، وقدان هذا الإدراك هو الذي عبر عنه القرآن بقوله : (لهم قلوب لا يفقهون بها) .

ومن أسباب ذلك الجهل والتفارق والشك والارتياب والحسد والضغينة إلى غير ذلك مما يفسد الاعتقاد والأخلاق ويجعل أحكام العقل في اضطراب .

وقد وجد هذا المرض عند هؤلاء المنافقين حين كانوا في فترة من الرسل فلم يكن لهم حظ من قراءة كتب الدين إلا تلاوتها ولا من أعماله إلا إقامة صورها دون أن تنفذ أسرارها إلى القلوب ، فتهدب النفوس وتسويها إلى فضائل الأخلاق والتفقه في الدين .

(فرادهم الله مرضاً) بعد أن جاء النذير البشير ومعه البرهان القاطع والنور الساطع وأبوا أن يتبعوه وزاد تمسكهم بما كانوا عليه ، فكان ذلك النور عى في أعينهم ، ومرضاً في قلوبهم وتحرقت قلوبهم حسرة على ما فاتهم من الرياسة ، وحسداً على ما يرونه من ثبات أمر الرسول وعلو شأنه يوماً بعد يوم .

(ولهم عذاب أليم) أليم من ألم يألم فهو أليم بمعنى مؤلم (بفتح اللام) إذ يصل ألمه إلى القلوب ، وصف به العذاب نفسه لبيان أن الألم بلغ الغاية حتى سرى من المعذب (بفتح اللام) إلى العذاب المتعلق به .

(بما كانوا يكذبون) أى بكذبهم في دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر ، فهم

لم يصدقوا بأعمالهم ما يزعمونه من حالهم ، وقد جعل العذاب جزاء الكذب دون سائر موجباته الأخرى كالكفر وغيره من أعمال سوء ، للتحذير منه وبيان فظاعته وعظم جرمه ، وللإشعار بأن الكفر من محتوياته ، وإليه ينتهى فى حدوده وغاياته ، ومن ثم حذر منه القرآن أتم التحذير ، وما فشا فى أمة إلا كثرت فيها الجرائم ، وشاعت فيها الرذائل ، فهو مصدر كل رذيلة ، ومنشأ كل كبيرة ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والكذب فإنه بجانب للآثام .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا
 كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
 السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) .

المعنى الجملى

عدد الله فى هذه الآيات الثلاث بعض شنائعهم المترتبة على كفرهم ونفاقهم ، ففصل بعض خباياهم وجنایاتهم وذكر بعض هفواتهم ثم أظهر فسادها وأبان بطلانها ، فحكى ما أسداه المؤمنون إليهم من النصائح حين طلبوا منهم ترك الرذائل التى تؤدى إلى الفتنة والفساد والتمسك بأهداب الفضائل واتباع ذوى الأحلام الراجحة والعمول الناضجة ، ثم ما أجابوا به مما دل على عظيم جهلهم وتماديهم فى سفهمهم وغفلتهم .

الإيضاح

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) الفساد خروج الشئ عن حد الاعتدال ، والصالح ضده ، والفساد فى الأرض هيج الحروب والفتن الذى يؤدى إلى اختلال أمر المعاش والمعاد ، والنهى عنه هنا الأسباب المؤدية إلى الفساد من إفشاء أمرار المؤمنين إلى الكفار وإغرائهم بالمؤمنين ، وتنفيرهم من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم

والأخذ بما جاء به من الإصلاح ، إلى نحو أولئك من فنون الشر وصنوف الفتن ، كما يقول إنسان لآخر : لا تقتل نفسك بيدك ، ولا تلق بيدك إلى التهلكة ، إذا أقدم على ما هذه عاقبته .

(قالوا إنما نحن مصلحون) أى لا شأن لنا إلا الإصلاح ، فنحن بعيدون عن شوائب الإفساد باتباعنا رؤساءنا الذين استلبطوا تعاليمهم من الأنبياء ، فكيف ندع ما تلقيناه منهم ونعتقد ديناً جديداً لا عهد لنا به من قبل ؟

وهكذا شأن المفسدين فى كل زمان يدعون فى إفسادهم أنه الإصلاح بعينه ، فإن كانوا على بينة من إفسادهم وضلالهم فهم يدعون ذلك ليبرثوا أنفسهم من وصمة الإفساد بالتمويه والخداع ، وإن كانوا مسوقين إليه تقليداً للرؤساء ، فهم يدعونه عن اعتقاد ، وإن كان السير على منهاجه مفسداً للأمة فى الحقيقة والواقع ، إذ هم عطلوا وسائل البحث التى تميز الإصلاح من الإفساد ، فهم بصددهم عن سبيل الإسلام الداعى إلى الوحدة والالتئام ، يدعون إلى الفرقة والانقسام ، وأى إفساد فى الأرض أعظم من التنفير من اتباع الحق والسير على منهاج الباطل ومؤازرة أهله .

(ألا إنهم هم المفسدون) أى هم وحدهم هم المفسدون دون من أومئوا إليهم ، لأن لهم سلفاً صالحاً تركوا الاقتداء بهم ، وفى هذا الأسلوب مبالغة فى الرد عليهم ، ودلالة على السخط العظيم .

(ولكن لا يشعرون) بهذا الإفساد لأنه أصبح غريزة فى طباعهم بما تمكن فيها من الشبه بتقليدهم أحبارهم الذين أشربت قلوبهم تعظيمهم والثقة بأرائهم .

(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) الذين اتبعوا قضية العقل وسلوكوا سبيل الرشاد ، وكان للايمان سلطان على نفوسهم ، وعليه بنوا تصارييف أعمالهم كعبد الله ابن سلام وأشباهه من أحبارهم .

(قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟) السفه خفة فى العقل وفساد فى الرأى ، ومنه قيل ثوب سفه أى ردىء النسج ، وعنوا بالسفهاء أتباع النبي صلى الله عليه وسلم .

أما مهاجروهم فلائهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا أوطانهم وتركوا ديارهم ليتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم ويسيروا على هديه . وأما الأنصار فلائهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم .

ولا يستبعد من انهمك في السفاهة وتمادى في الغواية ، ومن زين له سوء عمله فرآه حسناً وظن الضلال هدى أن يسمى الهدى سفهاً وضلالاً .

(ألا إنهم هم السفهاء) وحدهم دون من عرّضوا بهم ونسبواهم إلى السفه ، إذ هم لهم سلف صالح تركوا الاقتداء بهم واكتفوا بانتظار شفاعتهم وإن لم يجروا على هديهم وسنتهم ، بخلاف أولئك الذين لا سلف لهم إلا عابدو أصنام وقد هدام الله وصارت قلوبهم مطمئنة بالإيمان .

(ولكن لا يعلمون) ما الإيمان وما حقيقته ؟ حتى يعلموا أن المؤمنين سفهاء أو عقلاء .

وقد ختمت هذه الآية بلا يعلمون ، وسابقتها بلا يشعرون ، لأن الإيمان لا يتم إلا بالعلم اليقيني ، والفائدة المرجوة منه وهى السعادة فى العاش والمعاد لا يدركها إلا من يعلم حقيقته ويدرك كنهه ، فهم قد أخطئوا فى إدراك مصلحتهم ومصلحة غيرهم . أما نفاقهم وإفسادهم فى الأرض فقد بلغ من الوضوح مبلغ الأمور المحسوسة ، التى تصل إلى الخواص والمشاعر ، ولكن لا حس لهم حتى يدركوه .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) .

المفردات

اللقاء المصادفة تقول : لقيته ولاقيته إذا صادفته واستقبلته ، خلوا إما من خلوت بفلان وإلى فلان إذا انفردت به ، وإما من خلا بمعنى مضى ومنه القرون الخالية ، واطلب الأمر وخلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك . والشيطان كل عات متعبد من الإنس والجن كما قال (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) . والاستهزاء السخرية يقال هزأت به واستهزأت كأجبت واستجبت ، وأصل المادة تفيد الخفة يقال ناقة تهزأ به أى تسرع . يمدهم أى يزيدهم من مد الجيش وأمدّه إذا زاد عدده وقواه . والطغيان (بضم الطاء وكسر ها) مجاوزة الحد فى كل شئ . والعمة ظلمة البصيرة كالعمى فى البصر وأثره الحيرة والاضطراب بحيث لا يدرى الإنسان أين يتوجه ، يقال عمه فهو عمه وعمه جماعة عمه .

المعنى الجملى

وصف الله فى هذه الآيات حال جماعة من المنافقين كانوا فى عصر التنزيل قد بلغ من دعارتهم وتمردهم فى النفاق وفساد الأخلاق أن كانوا يظهرون بوجهين ، ويتكلمون بلسانين ، فإذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أتم به مؤمنون ، وإذا خلوا إلى شياطينهم دعاة الفتنة والإفساد الذين يصدون عن سبيل الحق قالوا لهم إنما نقول ذلك لهم استهزاء بهم ، وقد فضح الله بهتانهم وأوعدهم شديد العقاب على استهزائهم وزادهم حيرة فى أمورهم ، ثم ذكر أنهم قد اختاروا الضلالة على الهدى إذ هم أهملوا العقل فى فهم الكتاب بعد أن تمكنت منهم التقاليد والعادات وتحكمت فيهم البدع ففسروا فى تجارتهم وما كانوا مهتدين فيها ، لأنهم باعوا ما وهبهم الله من النور والهدى بضلالات البدع والأهواء .

الإيضاح

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) أى إذا رأى المنافقون المؤمنين واجتمعوا بهم قالوا كذبا وبهتاننا آمنا كما يمانكم وصدقنا كمتصديقكم ، وإذا انفردوا بأمتالهم من دعاة الفتنة والإفساد قالوا لهم إنا على عقيدتكم وموافقكم على دينكم ، وإنما نظهر لهم الإيمان استهزاء بهم لنشاركهم فى الغنائم ونحفظ أموالنا وأولادنا ونساءنا من أيديهم ونطلع على أسرارهم . (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) أى الله يجازيهم بالعقاب على استهزائهم (وسمى هذا الجزاء استهزاء للمشكلة فى اللفظ ، والعرب تسمى الشيء باسم غيره إذا شاركه فى اللفظ كما سمو جزاء السيئة سيئة) ويزيدهم فى عتوهم وكفرهم ويجعلهم حائرين مترددين فى الضلال عقوبة لهم على استهزائهم .

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى هؤلاء قد رغبوا عن الهدى وسلوك الطريق المستقيم ومالوا إلى الضلال واشتروه ولكن لم تكن تجارتهم رابحة ، إذ هم أضاعوا رأس المال وهو ما كان لهم من الفطرة السليمة والاستعداد لإدراك الحقائق ونيل الكمال فأصبحوا خاسرين آيسين من الربح .

وإن من كانت هذه حالهم فلا علم لهم بطرق التجارة ، فإن التاجر إن فاتته الربح فى صفقة فربما تداركه فى أخرى ما دام رأس المال موجودا ، أما وقد فقد رأس المال فلا سبيل إلى الربح بحال .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بِكُمْ عَنْهُمْ
لَا يَرْجِعُونَ (١٨) .

المفردات

المِثْلُ والمِثْلُ والمِثْلُ كالشَّبه والشَّبه والشَّبه وزنا ومعنى ، ثم استعمل في بيان حال الشيء وصفته التي توضحه وتبين خاله كقوله (مثل الجنة التي وعد المتقون) الخ . وقوله (ولله المثل الأعلى) واستوقد النار طلب وقودها أى سطوعها وارتفاع لها بفعله أو فعل غيره ، ويقال ضاءت النار وأضاءت وأضاءته النار ، أى أظهرته بضوئها . وترك أى صير . والصمم آفة تمنع السماع . والبكم الخرس . والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر .

المعنى الجملى

نهج القرآن الكريم نهج العرب في أساليبها ، ف ضرب الأمثال التي تتجلى المعانى أتم جلاء وتحدث في النفوس من الأثر ما لا يقدر قدره ولا يسبر غوره ، لما فيها من إبراز المعقولات الخفية في معرض المحسوسات الجلية ، وإظهار ما ينكر في لباس ما يعرف ويشهر ، وعلى هذا السنن ضرب الله مثل المنافقين ، فنصور حالهم حينما أسلموا أولاً ودخل نور الإيمان في قلوبهم ، ثم داخلهم الشك فيه فكفروا به إذ لم يدركوا فضائله ولم يفقهوا محاسنه ، وصاروا لا يبصرون مسلكتهم من مسالك الهداية ، ولا يدركون وسيلة من وسائل النجاة ، وقد أضاء ذلك النور قلوب من حولهم من المؤمنين الخالصين - بحال جماعة أوقدوا ناراً لينتفعوا بها في جلب خير أو دفع ضر ، فلما أضاءت ما حولهم من الأشياء والأماكن ، جاءها عارض خفي أو أمر سماوى كخطر شديد أو ريح عاصف جرفها وبددها فأصبحوا في ظلام دامس لا يتسنى لهم الإبصار بحال .

ثم جعلهم مرة أخرى كالصم البكم العمى الذين فقدوا هذه المشاعر والحواس ، إذ هم حين لم ينتفعوا بآثارها فكأنهم فقدوها ، فما فائدة السمع إلا الإصاخة إلى نصيح الناصح وهدى الواعظ ، وما منفعة اللسان إلا الاسترشاد بالقول وطلب الدليل والبرهان لتبجلي المعقولات وتتضح المشكلات ، وما مزية البصر إلا النظر والاعتبار

لزيادة الهدى والاستبصار ، فمن لم يستعملها فى شىء من ذلك فكأنه فقدها ، وأنى لمثله أن يخرج من ضلالة أو يرجع إلى هدى ؟ .

الإيضاح

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) أى مثل المنافقين وحالهم كحال الذين استوقدوا نارا فلما أضاءت ما حولهم من الأمكنة والأشياء أطفأ الله نارهم التى منها استمدوا نورهم بنحو مطر شديد أو ريح عاصف فصيرهم لا يبصرون شيئا ، لأن النور قد زال ولم يبق منه أثر ولا عين .

(صمّ بكم عي) وصفهم الله بهذه الصفات مع سلامة مشاعرهم ، من قبل أنهم فقدوا منفعة السمع فلا يصفون لعظة واعظ ولا إرشاد مرشد ، بل هم لا يفقهون إن سمعوا فكأنهم صم لا يسمعون ، كما فقدوا منفعة الاسترشاد وطلب الحكمة ، فلا يطلبون برهانا على قضية ولا يأتينا عن مسألة تخفى عليهم ، فكأنهم بكم لا يتكلمون وقدوا منافع الإبصار من النظر والاعتبار ، فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فينزعجوا ولا يبصرون ما تتقلب به أحوال الأمم فيعتبروا .

(فهم لا يرجعون) أى فهم لا يعودون من الضلالة إلى الهدى الذى تركوه وأضاعوه ، إذ من فقد حواسه لا يسمع صوتا يهتدى به ولا يصيح لينقذ نفسه ، ولا يرى بارقا من النور يتجه إليه ويقصده ، ولا تزال هذه حاله ، ظلمات بعضها فوق بعض حتى يتردى فى مهابى الهلاك .

أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْمَعُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) .

المفردات

الصيب المطر يصبوب وينزل من الصوب وهو النزول . والرعد هو الصوت الذي يسمع في السحاب أحيانا عند تجمعه . والبرق هو الضوء الذي يلمع في السحاب غالبا ، ويربما لمع في الأفق حيث لا سحاب ، وأسباب هذه الظواهر اتحاد كهربائية السحاب الموجبة بالسالبة كما تقرر ذلك في علم الطبيعيات . والصاعقة نار عظيمة تنزل أحيانا أثناء المطر والبرق ، وسببها تفريغ الكهرباء البائية التي في السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض . والإحاطة بالشئ الإحداق به من جميع جهاته والخطف الأخذ بسرعة . قاموا أى وقفوا في أما كنهم منتظرين تغير الحال ليصلوا إلى المقصد أو يلجئوا إلى ملجأ يعصمهم من الخطر .

المعنى الجملى

ضرب الله مثلا آخر يشرح به حال المنافقين ويبين فظاعة أعمالهم وسوء أفعالهم زيادة في التشكيل بهم وهتكاً لأستارهم ، إذ كانوا فتنة للبشر ومرضا في الأم ، فجعل حالهم وقد أتهم تلك الإرشادات الإلهية النازلة من السماء فأصابهم القلق والاضطراب واعترضتهم ظلمات الشبه والتقاليد والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالف آراءهم ، ثم استبان لهم أثناء ذلك قبس من النور يلمع في أنفسهم حين يدعوم الداعي وتلوح لهم الآيات البينة والحجج القيمة فيعزمون على اتباع الحق وتسير أفكارهم في نوره بعض الخطوات ، ولكن لا يلبثون أن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشبهات فتقيد الفكر وإن لم تقف سيره بل تعود به إلى الخيرة - كحال قوم في إحدى القلوات نزل بهم بعد ظلام الليل صيب من السماء فيه رعود قاصفة وبروق لامعة وصواعق متساقطة ، فتولاهم الدهش والرعب ، فهووا بأصابعهم إلى آذانهم كلما قصف هزيم الرعد ليسدوا منافذ السمع لما يحذرونه من الموت الزؤام ويخافونه من نزول الحما ، ولكن هل ينجى حذر من قدر « تعددت الأسباب والموت واحد »

بلى إن الله قدير أن يذهب الأسماع والأبصار التى كانت وسيلة الدهش والخوف ،
ولكن الحكمة غاب عنا سرها ، ومصاحبة لا نعرف كنهها ، لم يشأ ذلك وهو
الحكيم الخبير .

الإيضاح

(أو كصيب من السماء) أى كقوم نزل بهم صيب من السماء ، وفى قوله من
السماء إيماء إلى أنه شىء لا يمكن دفعه .

(فيه ظلمات ورعد وبرق) أى فيه ظلمة الليل ، وظلمة السحب ، وظلمة
الصيب نفسه .

(يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت) أى يجعلون أنامل
أصابعهم فى آذانهم كلما حدث قاصف من الرعد ليدفعوا شدة وقعه بسد منافذ السمع
خوفا على أنفسهم من الموت ، مع أن سد الآذان ليس من أسباب الوقاية من الصاعقة
حتى يدفع الموت عنهم .

(والله محيط بالكافرين) أى والله مطلع على أسرارهم عالم بما فى ضمائرهم قادر
على أخذهم أينما كانوا ، فما صنعوا من سد الآذان بالأصابع لا يغنى عنهم من الله شيئا
إذ لا يغنى حذر من قدر ، فمن لم يمت بالصاعقة مات بغيرها .

(يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى يكاد البرق يختلس أبصارهم ويستلها
بسرعة من شدة الضوء المفاجئ .

(كلما أضاء لهم مشوا فيه) أى كلما أثار البرق الطريق فى الليلة المظلمة مشوا
فى مطرح نوره خطوات يسيرة .

(وإذا أظلم عليهم قاموا) أى وإذا خفى البرق واستتر وأظلم الطريق وقفوا
فى أما كنهم متحيرين منتظرين فرصة أخرى عسى أن يتسنى لهم الوصول إلى المقصد
أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم من الهلاك .

(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) أى ولو شاء أن يذهب الأسماع والأبصار بصوت الرعد ونور البرق لفعل ، لكنه لم يشأ لحكم ومصالح هو بها عليم .
(إن الله على كل شيء قدير) أى أنه ما شاء كان ، إذ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أصناف الخلق و بين أن منهم المهتدين ، والكافرين الذين قتلوا الاستعداد للهداية ، والمناقضين المذبذبين بين ذلك - دعا الناس إلى دين التوحيد الحق وهو عبادة الله وحده عبادة خشوع وإخلاص حتى كأنهم ينظرون إليه ويرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، فإن فعلوا ذلك أعدوا أنفسهم للتقوى وبلغوا الغاية القصوى .

ثم عدد بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر ، فجعل منها خلقهم أحياء قادرين على العمل والكسب ، ثم خلق الأرض مستقرا ومهادا لينتفعوا بخيراتها ويستخرجوا معادنها ونباتها ، ثم بنى لهم السماء التي زينها بالكواكب وجعل فيها مصابيح يهتدى بها السارى في الليل المظلم ، وأنزل منها الماء فأخرج به ثمرات مختلفا ألوانها وأشكالها .

أفليس في كل هذا ما يطوح بالنظر ويهذى الفكر إلى أن خالق هذا الكون البديع المثال لا ند له ولا نظير ، وأن ما جعلوه أندادا له لا يقدر على إيجاد شيء

مما خلق ، وأنهم يعلمون ذلك حق العلم ، فكيف يستغيثون بغير الله ويدعون غير الله ويستشفعون به ويتوسلون إليه ، مع أنه لا خالق ولا رازق إلا هو ؟

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الْعِبَادَةُ خُضُوعٌ يُنشَأُ عَنْ اسْتِشْعَارِ الْقَلْبِ بِعَظَمَةِ الْمَعْبُودِ ، وَالرَّبُّ هُوَ الَّذِي يُسَوِّسُ مِنْ يَرِيْبِهِ وَيُدَبِّرُ شَأْنَهُ ، وَقَدْ بَدَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْوَتَهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا صَنِيعَ كُلِّ نَبِيٍّ كَمَا قَالَ (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

والمخاطبون بهذه الدعوة أولاً هم العرب واليهود في المدينة وما حولها ، وكانوا يؤمنون بالله ويعبدون غيره إما بدعائه مع الله ، أو من دون الله .

(الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) أى أن هذا الرب العظيم المتصف بتلك الصفات التي تعلمونها - هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم ورباكم وربى أسلافكم ودبر شئونكم ووهبكم من طرق الهداية ووسائل المعرفة مثل ما وهبهم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحداً من خلقه .

(أَعْلَمَكُمْ تَقْنُونَ) أى فاعبدوه على تلك الشاكلة ، فإن العبادة على هذا السنن هي التي تعدكم للتقوى ويرجى بها بلوغ درجة السكالم القصوى .

ثم ذكر بعض خصائص الربوبية التي تقتضى الاختصاص به تعالى فقال :
(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا) أى هو الذى مهد لكم الأرض وجعلها صالحة للافتراس والإقامة فيها .

(وَالسَّمَاءَ بَنَاءً) البناء وضع شيء على آخر بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة خاصة ؛ أى هو الذى كون السماء بنظام متماسك كنظام البناء ، وسوى أجرامها على ما نشاهد وأمسكها بسنة الجاذبية حتى لا تقع على الأرض ولا يصطدم بعضها ببعض حتى يأتى اليوم الموعود .

(وأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) أى وهو الذى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مطراً يسقى به الزرع ويفدى به النبات فأخرج به ثمراتنا كل منه وننتفع به .
 (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً) الندّ الشريك والكفء يقال فلان ند فلان إذا كان مماثلاً له فى بعض الشئون ، والأنداد هم الذين خضع الناس لهم وقصدهم فى قضاء حاجاتهم ، وكان مشركو العرب يسمون ذلك الخضوع عبادة إذ لم يكن عندهم شرع ينههم عن عبادة غير الله ، وأهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أَنْدَاداً وأرباباً - كانوا يتحاشون هذا اللفظ ، فلا يسمون ذلك الاتخاذ عبادة ولا أولئك المعظمين آلهة وأنداداً ، بل يسمون دعاءهم غير الله والتقرب إليه توسلاً واستشفاعاً وتشريعهم لهم بعض العبادات وتحليل المنكرات وتحريم بعض الطيبات فقها واستنباطاً من التوراة والكل متفقون على أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا هو .
 (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أى وإنكم تعلمون بطلان ذلك ، وإنكم إذا سئلتهم من رزقكم من السموات والأرض ومن يدبر الأمر ؟ تقولون : الله ، فلم إذا تدعون غيره وتستشفعون به ؟ .

ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التى لا تضر ولا تنفع ؟ ومن أين جاءكم أن التقرب إلى الله يكون بغير ما شرعه الله حتى قلتم (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .
 وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ
 وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا
 وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الناس بالنظر إلى القرآن أقسام ثلاثة : متقون يهتدون بهديه ، وجاحدون معاندون عن سماع حججه وبراهينه ، ومذبذبون بين ذلك - طلب هنا إلى الجاحدين المعاندين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى أن القرآن

معجزته - أن يتعرفوا إن كان هو من عند الله كما يدعى أو هو من عند نفسه كما يدعون ، فيروزوا أنفسهم ويحاكوه ، لعلهم يأتون بمثل سورة من أقصر سورة ، وهم فرسان البلاغة وعصرهم أرق عصور النضاجة ، والكلام ديدنهم وبه تفاخرهم ، وكثير منهم حاز قصب السبق في هذا المضمار ، ولم يكن محمد من بينهم ، فهو لم يمرن عليه ، ولم يبار أهله ولم ينافسهم فيه .

فإن عجزوا ولم يستطيعوا ذلك ، وهم لا يستطيعون وإن تظاهروا أنصارهم وكثر أشياعهم ، بل لو اجتمعت الأنس والجن جميعا ، فليعلموا أن ما جاءهم به فأعجزهم لم يكن إلا بوحى سماوى وإمداد إلهى لا يسمو إليه محمد بعقله ولا يصل بيانه إلى مثل أسلوبه ونظمه ، وإذا استبان عجزهم ولزمتهم الحجة فقد صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما ادعى ، وكان من ارتاب في صدقه معاندا مكابرا واستحق العقاب وكان جزاؤه النار التى وقودها العصاة الجاحدون وما عبدوه من أحجار وأصنام ، أعدت لكل من جحد الرسل أو استحدث في الدين ما هو منه براء .

الإيضاح

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) أى إن ارتبتم في أمر هذا القرآن وزعمتم أنه من كلام البشر فأتوا بمثله لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه سائر البشر .

(وادعوا شهداءكم من دون الله) أى ادعوا الحاضرين في مشاهدكم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفرعون إليهم فى الملمات وتقولون عليهم فى الملمات .

وقد يكون المراد بالشهداء الأصنام ؛ أى ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق ، وابتعدوا عن الله ناصر محمد صلى الله عليه وسلم .

(إن كنتم صادقين) فى أن فيه مجالا للريب والشك ، وأن محمدا تقوله من

تلقاء نفسه ، فليدرك ما يهتدى إلى الحق ويحلى الأمر ، فيها هو القرآن أمامكم فأتوا بسورة من مثله .

وقد نزل في هذا المعنى آيات كثيرة بمكة أولها ما في سورة الإسراء (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ثم ما في سورة هود (أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم ما في سورة يونس (أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله) وما جاء في هذه السورة المدنية .

(فإب لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) النار موطن العذاب ، ونؤمن بها كما أخبر القرآن ولا نبحت عن حقيقتها ، والوقود (بفتح الواو) ما توقد به النار ، والمراد بالناس العصاة ، والمراد بالحجارة هنا الأصنام كما قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وقوله : أعدت للكافرين ؛ أى هيئت للذين لا يستجيبون دعوة الرسل أو ينحرفون عنها لخالفهم هدى الدين وعمل ما تنكره شرائع الأنبياء والمرسلين .

والخلاصة : فإن لم تفعلوا ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد أن بذلتم الجهود ، (ولن تفعلوه فليس في استطاعتكم) فاحذروا من العناد واعترفوا بكونه منزلاً من عند الله ، لئلا تكونوا أنتم وأصنامكم وقوداً للنار التي أعدت لأمثالكم من الكافرين .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الكافرين وما أعدّ لهم من العقاب . قفى على ذلك بيشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعدّ لهم من نعيم مقيم في الدار الآخرة ، وقد جرت سنة القرآن أن يقرن التهيب بالترغيب تنشيطاً لا كسآب ما يوجب الزلفى عند الله ، وتنشيطاً عن اقتراف ما يوجب البعد من رضوانه تعالى .

والمأمور بهذا التبشير كل من يسمع الأمر من أهله ، وقد وعد الله الذين آمنوا بهذه الجنات وما فيها من لذات ، ونفوض علم ذلك إلى الله تعالى ونكتفى بما ورد من أن لذات الآخرة أعلى من لذات الدنيا ، فقد روى عن ابن عباس : أنه قال ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامى ، وجاء في الصحيحين مرفوعاً عن الله عز وجل « أعددت لعبادى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهو في المعنى مفسر لقوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

الإيضاح

(وبشر الذين آمنوا) البشارة الإخبار بما يسر ، وآمنوا أى بالله وصفاته التى جاء بها النقل وأيدها العقل ، وبالنبي وبما جاء به ، وبانبعث والجزاء ، ولا يتحقق الإيمان إلا باطمئنان القلب وقيام البرهان الذى لا يقبل الشك والارتياح ، وأفضل البراهين ما أرشد إليه القرآن من النظر فى آيات الله فى الآفاق والأنفس ، فقد يبلغ الإنسان علم اليقين بنظرة صادقة فى هذا الكون الذى بين يديه ، أو فى نفسه إذا تجلّت له بفرائب خلقها وبدائع صنعها .

(وعملوا الصالحات) العمل الصالح معروف عند الناس فقد أودع فى فطرتهم ما يميزون به بين الخير والشر ، ولكن بعضهم يضل بما يطرأ على نفسه من زيغ يحيد به عن الهدى ، ويتبعه آخرون فى ضلاله فتتولد التقاليد الضارة ، وتكون هى

ميزان الخير والصلاح لدى الضالين وإن كانت مخالفة لأصل الفطرة كما ورد في الحديث « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وقد بين الكتاب الأعمال الصالحة في آي كثيرة كقولہ (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لقرواحهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

(أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) قال القراء : الجنة البستان فيه النخيل ، والفردوس البستان فيه الكرم ، والمراد بها هنا دار الخلود في الحياة الآخرة أعدها الله للمتقين كما أعد النار للكافرين ، ونحن نؤمن بهما ولا نبحث عن حقيقتهما . والأنهار واحدها نهر (بفتح الهاء وسكونها) وهو الجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كنيل مصر ، وجرى الأنهار من تحتها هو كما نشاهد في الأشجار التي على شواطئ الأنهار الجارية .

(كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) أى كلما رزقوا من الجنة رزقا من بعض ثمارها قالوا هذا الذي وعدنا به في الدنيا جزاء على الإيمان وصلاح العمل ، فهو من وادى قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء) .

(وأتوا به متشابهاً) أى أن رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها في صورته ويختلف في طعمه ولذته .

(ولهم فيها أزواج مطهرة) أى ولهم في الجنات أزواج تطهرن غاية التطهر ، فليس فيهن ما يعين عليه من خبث جسدى مما عليه النساء في الدنيا كالحيض والنفس ، أو نفسى كالكييد والمكر وسائر مساوى الأخلاق .

وصحبة الأزواج فى الآخرة من الأمور الغيبية التى تؤمن بها كما أخبر الله ولا نبحث فيما وراء ذلك ، فأطوار الآخرة أعلى مما فى حياتنا الدنيا ، فهى سالمة من المنغصات فى الطعام والشراب والمباشرة الزوجية ، روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفنون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ، قالوا فما بال الطعام ، قال جُشاء ورشح كرشح المسك ، ويلههون التسبيح والتحميد كما تلههون النفس » .

(وهم فيها خالدون) الخلود لغة المكث الطويل ، قال فى الأساس : ومن كلامهم خالد فلان فى السجن أى أقام طويلا ، ويراد به فى لسان الشرع الدوام الأبدى أى هم لا يخرجون منها ولا هى تفتى وتزول ، بل هى حياة أبدية لا تنتهى .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

المفردات

الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم ، يقال فلان يستحى أن يفعل كذا أى أن نفسه تنقبض عن فعله ، وكأن الحياء ضعف فى الحياة لأنه يؤثر فى القوة المختصة بالحيوان وهى قوة الحس والحركة ، وفعله استحى واستحيا ويقال استحييته واستحييت منه ، والمثل فى اللغة الشبيه والنظير ، وضرب المثل فى الكلام أن يذكر لحال ما يناسبها فيظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا ، وهو

مأخوذ من ضرب الدراهم وهو إحداث أثر خاص فيها ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، ولا يظهر التأثير في النفس بتحقيق شيء وتقييمه إلا بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيقه ونفوس النفوس منه ، والمراد بما فوق البعوضة ما زاد عليها وفاقها في الصغر كالجراثيم التي لا ترى إلا بالمنظار المكبر ، وكانوا قديما يضربون المثل في الصغر بمنخ النملة والبعوضة ، فقد قالوا : أغر من مخ البعوضة ، وجاء في الحديث « لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » والحق هو الشيء الذي يحق ويجب ثبوته ولا يجد العقل سبيلا إلى إنكاره ، والفسق لغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت ، والنقض فك الحبل والغزل ونحوهما ، والميثاق ما يوثق به الشيء ويكون محكما يعسر نقضه ، وعهد الله ما أخذه على عباده من فهم السنن الكونية بالنظر والاعتبار بما أوتوه من نعمة العقل والحواس المرشدة إلى الفهم ، ونقضه عدم استعمال تلك المواهب فيما خلقت له حتى كأنهم فقدوها .

المعنى الجملى

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات جاءت لتنزيه القرآن الكريم من ريب خاص اعترى اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالحقرات كالذباب والعنكبوت لما نزل قوله تعالى (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله إن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) وقوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) إثر تنزيهه من مطلق الريب بما تتحدثهم به في الآيات السابقة ، إذ طلب إليهم أن يأتوا بسورة مثله ، وبه أبان لهم أن ذلك ليس بمطعن في القرآن ، بل هو أنضع برهان على أنه من عند خالق القوى والقدر ، فإن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين

المثل وما مثل له ، فالعظيم يمثل له بالعظيم ، والحقير يمثل له بالحقير ، ألا ترى إلى الإنجيل وقد مثل غل الصدر بالنخالة ومعارضة السفهاء بإثارة الزنايير ، وجاء في عباراتهم (أجمع من ذرة ، وأجراً من الذباب ، وأضعف من بعوضة) .

وما الأمثال إلا إبراز للمعاني المقصودة في قالب الأشياء المحسوسة لتأنس بها النفس وتستنزل الوهم عن معارضة العقل ، والحكيم علام الغيوب يعلم حكمة هذا فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك .

والناس إزاء هذا فريقان : مؤمنون يقولون إن الله خالق الأشياء حقيرها وعظيمها فالكل لديه سواء ، وكافرون يستهزئون بالأمثال احتقاراً لها ، فخت عليهم كلمة ربهم فأصبحوا من الخاسرين .

الإيضاح

(إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ببعوضة فما فوقها) أى إن الله جات قدرته لا يرى من النقص أن يضرب المثل بالبعوضة فما دونها ، لأنه هو الخالق لكل شيء جليلاً كان أو حقيراً .

(فأما الذين آمنوا فיעلمون أنه الحق من ربهم) أى فالؤمنون يقولون ما ضرب الله هذا المثل إلا الحكم ومصالح اقتضت ضربه لها ، وهى تقرير الحق والأخذ به ، فهو إنما يضرب لإيضاح المبهم بجعل المقولات تلبس ثوب المحسوسات ، أو تفصيل الجمل لبسطه وإيضاحه .

(وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) الذين كفروا هم اليهود والمشركون وكانوا يجادلون بعد أن استبان لهم الحجة وحصحص الحق ويقولون ماذا أراد الله بهذه المثل الحقيرة التى فيها الذباب والعنكبوت ، ولو أنصفوا لعرفوا وجه الحكمة فى ذلك وما أعرضوا وانصرفوا (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً) .

ثم أجاب عن سؤالهم بقوله :

(يضل به كثيراً ويهتدى به كثيراً) أى أن من غلب عليهم الجهل إذا سمعوه كبروا وعاندوا وقابلوه بالإنكار فكان ذلك سبباً في ضلالهم ، ومن عادتهم الإنصاف والنظر بثاقب الفكر إذا سمعوه اهتدوا به ، لأنهم يقدرُونَ الأشياء على حسب فائدتها ومن المعلوم أن أنفع الكلام ما تجلت به الحقائق واهتدى به السامع إلى سواء السبيل ، وأجله في ذلك الأمثال كما قال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) والعالمون هم المؤمنون المهتدون بهدى الحق .

وقد جعل الله المهتدين في الكثرة كالضالين ، مع أن هؤلاء أكثر كما قال (وقليل من عبادى الشكور) إشارة إلى أن المؤمنين المهتدين على قلتهم أكثر نفعاً وأجل فائدة من أولئك الكفرة الفاسقين .

إن الكرام كثير في البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

ثم أكمل الجواب وزاد في البيان فقال :

(وما يضل به إلا الفاسقين) أى وما يضل بضرب المثل إلا الذين خرجوا عن سنة الله في خلقه وهداهم إليها بالعتل والمشاعر والكتب المنزلة على من أوتوها . وفي هذا إيماء إلى أن علة إضلالهم ما كانوا عليه من الخروج عن السنن الكونية التي جعلها الله عبرة لمن يتذكر ، فانصرفت أنظارهم عن التدبر في حكمة المثل إلى حقارة المثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه .

ثم زاد في ذم الفاسقين بذكر أوصاف مستقبحة لهم فقال :

(الذين ينقضون عهد الله) أى الذين يستعملون المواهب التي خلقها الله لعباده من عقل ومشاعر وحواس ترشداهم إلى النظر والاعتبار في غير ما خلقت له حتى كأنهم فقدوها كما قال (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل) ، أولئك هم الغافلون .

وهذا العهد الذى نقضوه هو العهد الفطرى ، وهناك عهد آخر جاءت به الشرائع وهو العهد الدينى ، وقد وثق الله الأول بجعل العقول قابلة لإدراك السنن الإلهية التي

فى الكون ، كما وثق الثانى بما أيد به الأنبياء من الحجج والبراهين الدالة على صدقهم ، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سننه فى إبلاغ القوى البشرية والنفسية حد الكمال الإنسانى الممكن لها .

(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أمر الله ضربان ، أمر تكوين وهو ما عليه الكون من بديع الصنع ودقيق النظام كإفضاء الأسباب إلى مسبباتها والمقدمات إلى نتائجها ، ومعرفة المنافع والمضار بغاياتها ، وأمر تشريع وهو ما جاء به الأنبياء من الشرائع لتبليغه للناس ليعملوا به .

فمن أنكر الإله وصفاته بعد أن شهدت بوجوده الآثار المنبثة فى الكون ، أو أنكر نبوة نبي بعد أن أقام الدليل على صدقه فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى العهد القطرى ، لأنه قطع الصلة بين الدليل والمدلول .

ومن أنكر شيئاً مما علم أن الرسول قد جاء به من الأوامر والنواهي فقد قطع ما أمر الله به فى كتبه أمر تشريع وتكليف ، وهو لا يأمر إلا بما أثبتت التجربة منفعته ، ولا ينهى إلا عما ثبتت مضرته .

ومشركو العرب بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم نقضوا عهد الفطرة ، وأهل الكتاب نقضوا العهدين معا ، فإن الله بشرهم فى الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بذكر صفاته ، فحرفوا وأولوا متعمدين كما قال تعالى (وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) .

(ويفسدون فى الأرض) بصددهم عن سبيل الله ييغونها عوجا ، وبالإستهزاء بالحق بعد ما تبين ، وإيهالهم هداية العقل وهداية الدين ، فوجودهم فى الأرض مفسدة لأنفسهم ومفسدة لأهلها .

(أولئك هم الخاسرون) لأن إفسادهم لما عم العقائد والأخلاق بفقد هداية الفطرة وهداية الدين ، استحقوا الخزى فى الدنيا بحرمان السعادة الجسمية والعقلية والخلقية ، والعذاب الأليم فى الآخرة ، ومن خسر السعادتين كان فى خسران مبين .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ
ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

المعنى الجملى

وجه الله الخطاب فى هاتين الآيتين إلى أولئك الفاسقين الذين ضلوا بالمثل بعد
أن وصفهم بالصفات الشنيعة من نقض العهد الموثق وقطع ما أمر الله به أن يوصل
والإفساد فى الأرض ، وجاء به على طريق التوبيخ والتعجيب من صفة كفرهم
بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان الصادقة عن الكفر ، وهى النعم المتظاهرة الدالة
على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى منتهاه ، من إحيائهم بعد الإماتة وتركيب صورهم
من الذرات المتناثرة والنطف الحفيرة المهيئة ، وخلق لهم ما فى الأرض جميعاً ليتمتعوا
بجميع ما فى ظاهرها وباطنها على فنون شتى وطرق مختلفة ، وخلق سبع سموات
مزيّنة بمصابيح ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .

أبعد هذا كله يكفرون به وينكرون عليه أن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو
عليهم آياته ، ويضرب لهم الأمثال ليهتدوا بها فى إيضاح ما أشكل عليهم بما فيه أمر
سعادتهم فى دينهم ودنياهم ؟

الإيضاح

(كيف تكفرون بالله) أى على أى حال تكفرون بالله ، وعلى أى شبهة
تعتمدون ، وحالكم فى موتيتكم وحياتيتكم لا يدع لكم عذرا فى هذا الكفران به
والاستهزاء بما ضربه من المثل وإنكار نبوة نبيه .
(وكنتم أمواتا فأحياكم) أى والحال أنكم كنتم قبل هذه النشأة فى الحياة

الدنيا أمواتاً ، أجزاءكم متفرقة فى الأرض ، بعض منها فى الطبقات الجامدة وأخرى فى الطبقات السائلة ، وقسم فى الطبقات الغازية ، تشركون سائر أجزاء الحيوان والنبات فى ذلك ، ثم خلقكم فى أحسن تقويم وفضلكم على غيركم بنعمة العقل والإدراك والفهم ، وتسخير جميع الكائنات الأرضية لكم .
(ثم يمتكم) حين انقضاء آجالكم بقبض الأرواح التى بها نظام حياتكم وحينئذ تتحل أبدانكم وتعود سيرتها الأولى وتنبث فى طبقات الأرض وينعدم هذا الوجود الخاص الذى لها .

(ثم يحيمكم) حياة أخرى أرقى من هذه الحياة وأكمل لمن زكى نفسه وعمل صالحاً ، ودونها لمن أفسد فطرته وأهمل التدبر فى سنن الكون وأنكر الإله والرسول وفسق عن أمر ربه .

(ثم إليه ترجعون) للحساب والجزاء على ما قدمتم من عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) بعد أن عدد سبحانه آياته فى الأنفس بذكر المبدأ والمنتهى - ذكر آياته فى الآفاق الدالة على قدرته المحيطة بكل شئ وعلى نعمه المتظاهرة على عباده بجعل ما فى الأرض ميماً لهم ومعداً لمنافعهم بإحدى وسيلتين .

(١) إما بالانتفاع بأعيانه فى الحياة الجسدية ليكون غذاء للأجسام أو متعة لها فى الحياة المعيشية .

(٢) وإما بالنظر والاعتبار فيما لا تصل إليه الأيدى فيستدل به على قدرة مبدعه ويكون غذاء للأرواح .

وبهذا نعلم أن الأصل إباحة الانتفاع بكل ما خلق فى الأرض ، فليس لمخلوق حق فى تحريم شئ أباحه الله إلا بأذنه كما قال (قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) .

(ثم استوى إلى السماء) السماء كل ما في الجهة العليا فوق رؤوسنا ، واستوى إليها أى قصدها قصدا مستويا بلا عطف يثنيه من إرادة خلق شيء آخر فى أثناء خلقها .
(فسواهن سبع سموات) أى أتم خلقهن فجعلهن سبع سموات تامات الخلق والتكوين .

وفى الآية إيماء إلى أن خلق الأرض وما فيها كان سابقا على تسوية السموات سبعا ، وهذا لا يخالف قوله تعالى (أنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج نهارها ، والأرض بعد ذلك دحاها) لأن كلمة (بعد) فيها بعدية فى الذكر لا فى الزمان ، فمن استحال عليهم أن يقولوا : أحسنت إلى فلان بكذا ، وقدمت إليه المعونة وبعد ذلك ساعدته فى عمله ، على معنى وزيادة على ذلك ساعدته ، أو أن الذى كان بعد خلق السماء هو دحو الأرض أى تمهيدها للسكنى والاستعمار لا مجرد خلقها وتقدير الأقوات فيها .

(وهو بكل شيء عليم) أى أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من لدن حكيم عليم بما خلق ، فلا عجب أن يرسل رسولا يوحى إليه بكتاب هداية من يشاء من عباده يضرب فيه الأمثال بما شاء من مخلوقاته ، جل أو حق ، عظم أو صغر .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

المفردات

خليفة أى عن نوع آخر أو خليفة عن الله فى تنفيذ أوامره بين الناس ، السفك والسفح والسكب الضب ، والتسبيح تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والتقديس إثبات ما يليق .

المعنى الجملى

هذه الآية كالتى قبلها تعداد للنعم الصارفة عن العصيان والكفر الداعية إلى الإيمان والطاعة ، فإن خلق آدم على تلك الصورة وما أوتيته من نعمة العلم وحسن التصرف فى السكون وجعله خليفة الله فى أرضه - لمن أجل النعم التى يجب على ذريته أن يشكروها عليها بحسن طاعته والبعد عن كفرانه ومعصيته .

وفى ما بعدها قصص لأخبار النشأة الإنسانية أبرز فيه حكما وأسرارا جاءت فى صورة مناظرة وحوار - وهو من التشابه الذى لا يمكن حمله على المعنى الظاهر منه ، لأنه إما استشارة من الله لعباده وذلك محال ، وإما إخبار منه للملائكة فاعتراض منهم ومحااجة ، وذلك لا يليق بالله ولا بملائكته على حسب ما جاء فى وصفهم بقوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ومن ثم كان للعلماء فيه وفى أمثاله رأيان .

(١) رأى المتقدمين منهم وهو تفويض الأمر إلى الله فى بيان المراد من كلامه ، مع علمنا بأنه لا يخبرنا بشيء إلا لتستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا ، بذكر ما يقرب المعانى إلى عقولنا .

فهذا الحوار المصور بصورة القول والمراجعة والسؤال والجواب لا ندرك حقيقة المراد منه ، وإن كنا نجزم بأن هناك مقاصد أريد إفادتها بهذه العبارات ، وأن الله كان يعدّ لآدم السكون وأن لهذا الخلق كرامة لديه بما أودعه فيه من فضائل ومزايا ، وفائدة ذكر ذلك لنا من نواح عدة :

(١) بيان أن لا مطمع للإنسان فى معرفة جميع أسرار الخليفة وحكمها ، فالملائكة وهم أولى منا بعلمها عجزوا عن معرفتها .

(٢) أن الله قد هدى الملائكة بعد حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم ، بأن

أرشدهم إلى الخضوع والتسليم أولاً بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) ثم بالدليل ثانياً بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة .

(٣) أن الله جلت قدرته رضى خلقه أن يسأله عما خفى عليهم من أسرازه في الخليفة ، والسؤال كما يكون بالمقال يكون بالخال بالتوجه إلى الله أن يفيض عليهم العلم بمعرفة ما أشكل عليهم .

(٤) تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المشركين له ومحاجتهم بلا برهان يستندون إليه - بأنه لا بدع في ذلك ، فالملائكة طلبوا الدليل والبرهان من ربهم فيما لا يعلمون ، فالأنبياء يجدر بهم أن يصبروا على المكذبين ويعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين ، ويأتوهم بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة .

(ب) رأى المتأخرين منهم - وهو تأويل ما اشتبه علينا من قواعد الدين ، لأنها إنما وضعت على أساس العقل ، فإذا ورد في النقل شيء يخالف حكم العقل ، حمل النقل على غير الظاهر منه بتأويله حتى يتفق مع حكم العقل .

وعلى هذا - فالقصة وردت مورد التمثيل لتقريبها من أذهان الخلق ، بإفهامهم حال النشأة الآدمية ومآلها من ميزة خاصة - بأن أخبر الله ملائكته بأنه جاعل في الأرض خليفة - فعجبوا وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ، أو بلسان الحال بالتوجه إليه تعالى أن يفيض عليهم المعرفة - كيف تخلق هذا النوع ذا الإرادة المطلقة والاختيار الذي لاحد له ، وربما اتجه بإرادته إلى خلاف المصلحة والحكمة ، وذلك هو الفساد ، فألقى عليهم بطريق الإلهام وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شيء غليم ، فما يضيق عنه علم أحد يتسع له علم من هو أعلم منه ، وهذا جواب ربما لا يذهب بالحيرة ، ومن ثم تفضل على الملائكة وأبان لهم الحكمة في خلق هذا النوع ، فعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فعملوا أن في فطرة هذا النوع استعداداً لعلم ما لم يعلموا ، وأنه أهل للخلافة في الأرض ، وأن سفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته .

وخلاصة هذا — أن الملائكة تشوفوا لمعرفة الحكمة في استخلاف ذلك الخلق الذى من شأنه ما قالوا ، ومعرفة السر في تركهم وهم المجهولون على تسبيحه وتقديسه — فأعلمهم الله أنه أودع فيه من السر ما لم يودعه فيهم ، هذا مجمل ما جلى به الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله هذا البحث حين تفسيره للآية ونقله عنه صاحب المنار في تفسيره .

الإيضاح

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) أى واذا كر لقومك . مقال ربك للملائكة : إني جاعل آدم خليفة عن نوع آخر كان في الأرض وانقرض بعد أن أفسد في الأرض وسفك الدماء وسيحل هو محله ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى بعد ذكر إهلاك القرون (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) ومن ثم استنبط الملائكة سؤالهم بالقياس عليه ، وعلى هذا فليس آدم أول أصناف العقلاء من الحيوان في الأرض .

ويرى جمع من المفسرين أن المراد بالخلافة الخلافة عن الله في تنفيذ أوامره بين الناس ، ومن ثم اشتهر « الإنسان خليفة الله في الأرض » وقال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) .

وهذا الاستخلاف يشمل استخلاف بعض أفراد الإنسان على بعض ، بأن يوحى بشرائعه على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه ، واستخلاف هذا النوع على غيره من المخلوقات بما يميزه به من قوة العقل ، وإن كنا لا نعرف سرها ولا ندرك كنهها ، وهو بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود العلم ، يتصرف في الكون تصرفا لاحد له ، فهو يبتدع ويفتن في المعدن والنبات وفي البر والبحر والهواء ، ويغير شكل الأرض فيجعل الماثل خصبا ، والحزن سهلا ، ويولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن ، ويتصرف في أنواع الحيوان كما شاء بضروب التوليد ، ويسخر كل ذلك لخدمته .

ولا أدلّ على حكمة الله من جعل الإنسان الذى اختص بهذه المواهب خليفة فى الأرض يظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته .

(قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) أى أنجعل من يقتل النفوس المحرمة بغير حق خليفة فى الأرض ؟

(ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أى أتستخلف من هذه صفته ونحن المعصومون ؟
(قال إني أعلم ما لا تعلمون) أى قال لهم ربهم : إني أعلم من المصلحة فى استخلافه ما هو خفى عليكم ، وفى هذا إرشاد الملائكة أن يعلموا أن أفعاله تعالى كلها بالغة غاية الحكمة والكمال وإن مُعَي ذلك عليهم .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

المعنى الجملى

قد علمت مما سبق أن هذه المراجعات والمناظرات إما أن تفوض أمر معرفتها إلى الله كما هو رأى السلف ، وإما أن نلجأ فيها إلى التأويل ، وأحسن طريقة أن يكون الكلام ضرباً من التمثيل بإبراز المعانى المعقولة بالصور المحسوسة تقريباً للأفهام .

وبهذا القصص نعرف ما امتاز به النوع الإنسانى من غيره من المخلوقات ، وأنه مستعد لبلوغ الكمال العلمى إلى أقصى الغايات ، دون الملائكة ، ومن ثم كان أجدر بالخلافة منهم .

الإيضاح

(وعلم آدم الأسماء كلها) الأسماء واحدها اسم وهو فى اللغة ما به يعلم الشيء ، فاسم الله مثلا هو ما به عرفناه فى أذهاننا بحيث يقال إنا نؤمن بوجوده ، وهو بهذا الإطلاق هو الذى يتقدس ويتبارك ويتعالى كما جاء فى قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) — (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) .

أو يقال المراد من الأسماء المسميات وعبر بها عنها للمصلة الوثيقة بين الدال والمدلول وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر ، وأيّا كان فإن العلم الحقيقى إنما هو إدراك المعلومات ، أما الألفاظ الدالة عليها فهى تختلف باختلاف اللغات التى تجرى بالمواضعة والاصطلاح .

والله تعالى علم آدم الأجناس التى خلقها وألمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، ولا فارق بين أن يكون هذا العلم فى آن واحد أو آتات متعددة ، فالله قادر على كل شيء وإن كان لفظ (علم) يشعر بالتدريج كما يشهد له نظائره من نحو (وعلمك ما لم تكن تعلم) — (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) إلى نحو ذلك من الآيات التى فيها لفظ التعليم ، لكن المتبادر هنا أنه كان دفعة واحدة . (ثم عرضهم على الملائكة) أى ثم أطلعهم على مجموعة تلك الأشياء إطلاعا إجماليا بالإلهام أو غيره مما يليق بحالهم ، وربما كان بعرض نماذج من كل نوع يتعرف منها أحوال البقية وأحكامها .

والحكمة فى التعليم والعرض تشريف آدم واصطفاه ، كى لا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم ، وإظهار الأسرار والعلوم المكنونة فى غيب علمه تعالى على لسان من يشاء من عباده .

(فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء) الإنبياء فى الأصل الإخبار ، وقد يستعمل فى الإخبار بما فيه فائدة عظيمة وهو المراد هنا ، أيذنانا برفعة شأن الأسماء وعظيم خطرهما .

وأمرهم بهذا الإنباء إظهارا لعجزهم عن معرفتها ، وإشارة إلى أن الخلافة في الكون والتصرف فيه وتدير شؤونه وإقامة العدل فيه تكون بعد الوقوف على مراتب الاستعداد ومعرفة من يكون أهلا للخلافة .

(إن كنتم صادقين) أى إن كان هناك مجال للدهشة في كون الخليفة من البشر . وفى أن ما اختلج في خواطرهم من الشبهة أصاب الصواب وحل محله من القبول ، فأنبئوني بأسماء ما عرضته عليكم .

وإنا لنسترشد بهذه الآية إلى أن المدعى لشيء يطالب بالحجة والبرهان تأييدا لما ادعى ، فالملائكة قد بحثوا عن سر الغيب ففرغوا بالعيان ، فكانه قيل لهم : أتم لا تعلمون أسرار ما تعينون ، فكيف تتكلمون في أسرار ما لا تعينون .

وفى قوله (هؤلاء) إشارة إلى أنه سمى الأشياء التى وقع عليها حسه كالطيور والبهائم وأنواع الحيوان التى أمامه .

(قالوا سبحانه) أى قد سكت عما لا يليق بك من قصور العلم فتخلق الخليفة عبثا خاليا من الحكمة والفائدة ، أو تسألنا عن شيء نفيده ، وأنت تعلم أن علمنا لا يحيط به ولا تقدر على الإنباء به .

وكلمة (سبحانه) تقدم في معرض التوبة كما قال موسى عليه السلام (سبحانه) ثبت إليك) وقال يونس (سبحانه) إني كنت من الظالمين .

(لا علم لنا إلا ما علمتنا) وهو علم محدود لا يشاغل جميع الأشياء ولا يحيط بكل المسميات ، وهذا منهم اعتراف بالعجز عما كلفوه ، وإشعار بأن سؤلهم كان سؤال مستفسر لا سؤال معترض ، وفيه ثناء على الله بما أفاض عليهم من العلم مع تواضع وأدب ، فكانهم قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا على حسب استعدادنا ، ولو كنا مستعدين لأكثر من ذلك لأفصت علينا ، ثم أكد ما تقدم بقوله :

(إنك أنت العليم الحكيم) العليم هو الذى لا تخفى عليه خافية ، والحكيم أى الحكم لمبتدعائه ، الذى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة البالغة .

وفي هذا الجواب منهم إيذان بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب عليهم ألا يغفلوا عن مثله من التفويض لواسع علم الله وعظيم حكمته بعد أن تبين لهم ما تبين ، وإيماء إلى أن الإنسان ينبغي له ألا يغفل عن نقصانه ، وعن فضل الله عليه وإحسانه ولا يأنف أن يقول لا أعلم إذا لم يكن يعلم ، ولا يكن الشيء الذي يعلم .
(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) أى أعلمهم بأسمائهم التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها .

وقال: أنبئهم دون أنبئى للإشارة إلى أن علمه عليه السلام بها ظاهر لا يحتاج إلى ما يجرى مجرى الامتحان ، وإلى أنه جدير أن يعلم غيره ، فتكون له منة المعلم المفيد ، ولهم مقام المتعلم المستفيد ، ولثلاث تستولى عليه الهيبة ، فإن إنباء العالم ليس كالإنباء غيره .
(فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أى فلما أنبأهم بأسمائهم وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه ، قال تعالى للملائكة: قد قلت لكم إني أعلم ما غاب في السموات والأرض فلا أخلق شيئا سدى ، ولا أجعل الخليفة في الأرض عبثا ، وأعلم ما تظهرون من نحو قولكم (أنجعل فيها من يفسد فيها) وما كنتم تكتمون من نحو قولكم : لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ، فنحن أحقأ بالخلافة في الأرض .

وفي هذه الآيات دلالة على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات ، وعلى فضل العلم على العبادة ، فإن الملائكة أكرم عبادة من آدم ولم يكونوا أهلاً لاستحقاق الخلافة ، وعلى أن شرط الخلافة العلم بل هو العمدة فيها ، وعلى أن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم ، والأفضل هو الأعم بدليل قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

وفي استخلاف آدم في الأرض معنى سام من الحكمة الإلهية خفي على الملائكة فإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص ، فإنهم ليسوا بحاجة إلى شيء مما في الأرض ، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان ،

فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع ، ولا تستخرج المعادن من باطنها ولا تعرف خواصها الكيائية والطبيعية ، ولا تعرف الأجرام الفلكية ولا المستحدثات الطبية ولا شيء من العلوم التي تفي الستون ولا يدرك الإنسان لها غاية .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

المعنى الجملى

بعد أن أعلم الله تعالى الملائكة مكانة آدم وأنه جعله خليفة فى الأرض ، أمرهم بالسجود له سجد خضوع لا سجد عبادة ، اعترافاً بفضله واعتذاراً عما قالوه فى شأنه من قولهم : اتجمل فيها من يفسد فيها .

الإيضاح

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) السجود لغة الخضوع والانقياد ، ومن أعظم مظاهره وضع الجبهة على التراب ، وكان تحية الملوك عند بعض القدماء كما ورد من سجد يعقوب وأولاده ليوسف .

والسجود لله قسبان : سجد العقل ، تعبداً على الوجه المعروف شرعاً ، وسجود المخلوقات كلها بانقيادها وخضوعها لمتنقى إرادته كما قال « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » وقال « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » .

والملائكة من عالم الغيب لا تعرف حقيقةهم ، والكتاب الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صنف عمل ، وقد جاء فى لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين وهو مشهور فى الكتاب والسنة ، فقد روى الترمذى « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بَابَنَ آدَمَ ، وَلِلْمَلَكِ لَمَةٌ » . فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ،

فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) واللمة الإلزام والإصابة .

فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس لا نعرف حقيقته ، بل نؤمن بما ورد فيه ولا نزيد عليه شيئاً آخر .

ويرى بعض المفسرين أن ما ورد من أن الملائكة موكلون بالأعمال من إنباء نبات وخلق حيوان وحفظ إنسان ، فمعناه أن هذا النمو في النبات إنما هو بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان ، فكل شيء قائم بنظام خاص تمت به الحكمة الإلهية في إيجادها ، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكاً ، ومن لا يعترف بالغيب يسميه قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً ، فالؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن به يقول أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، وإذا فلا خلاف بين الناس في وجود شيء غير ما يرى ويحس ، لا يفهم حق الفهم ولا يصل العقل إلى إدراك كنهه . وكلنا نشعر إذا هممنا بأسر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفوسنا تنازعا وكأن الأمر قد عرض على مجلس للشورى ، فواحد يقول افعَلْ وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذي أودع في نفوسنا ونسميه قوة وفكراً هو في الحقيقة معنى لا ندرك كنهه ، ولا يبعد أن نسميه أو نسمى سببه ملكاً ، انتهى كلامه ملخصاً .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده ، فإذا جرينا على هذا التفسير فليس ببعيد أن تكون في الآية إشارة إلى أن الله لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من المخلوقات لا يعتمد على خلق الإنسان وأعطاه قوة بها يتصرف في جميع القوى ويسخرها في عمارة الأرض ، وهذا التسخير هو المعبر عنه بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع ، وبهذه القوة التي لا حد لها جعله الله خليفة في أرضه ، لأنه أكل الموجودات ، واستثنى من هذه

القوى قوة واحدة تميل بالكامل إلى النقص ، وتصدده عن عمل الخير ، وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافة ، تلك القوة ضلّت آثارها قوما فزعموا أن في العالم إلها يسمى إله الشر ، وما هي بإله ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو ، تلك القوة هي المعبر عنها بإبليس .

ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق ، انتهى كلامه رحمه الله .

(فسجدوا لإبليس) أى سجد الملائكة جميعاً إلا إبليس .

والعلماء في حقيقة إبليس رأيان : أحدهما أنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم متصفاً بصفاتهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ولأن الملائكة لا يستكبرون وهو قد استكبر ، وهو قد خلق مما خلق منه الجن كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

ثانيهما أنه كان من الملائكة ، لأن خطاب السجود كان مع الملائكة ، ولأن الظاهر من هذه الآية وأمثالها أنه منهم ، قال البغوي وهو الأصح ، وقال في التيسير : إن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم دليل على تصور العصيان منهم ، ولولا ذلك مامدحوا به ، لكن طاعتهم طبع وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولا يستفكر من الملائكة تصور العصيان فقد ذكر عن هاروت وماروت ما ذكر ، وليس هناك دليل على أن بين الملائكة والجن فروقا جوهرية بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هي فروق في الأوصاف فقط ، والجميع من عالم الغيب لا نعلم حقائقها ولا نضيف إليها شيئاً إلا إذا ورد به نص عن العصوم .

(أبى واستكبر) أى امتنع عما أمر به من السجود ، وأظهر كبره وترفع عن

الحق زعما منه أنه خير من الخليفة عنصرأ وأزكى جوهرأ كما قض ذلك عنه « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » فيو الأحق بالرياسة .
(وكان من الكافرين) أى صار من الكافرين برفض الإذعان لأمر الله لزعمه أنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يخضع لمن دونه .

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى
آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

المعنى الجملى

علمت مما سلف أن الحكمة الإلهية اقتضت إيجاد النوع الإنسانى فى الأرض واستخلافه فيها ، وأن الملائكة فهموا أنه يفسد نظامها ويسفك الدماء ، فأعلمهم المولى بأن علمهم لا يرقى إلى الإحاطة بمعرفة حكمته ، وأن الله أوجد آدم وفضله بتعليم الأسماء كلها ، وأنه تعالى أخضع له الملائكة إلا إبليس فقد أبى واستكبر عن السجود لما فى طبيعته من الاستعداد للعصيان ، وهنا ذكر أنه تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بما فيها ونهاهما أن يأكلا من شجرة معينة ، وأعلمهما أن القرب منها ظلم لأنفسهما ، وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما من ذلك النعيم ، وأن آدم أناب إلى الله من معصيته فقبل توبته ، وقد سبقت هذه القصة تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار ، ليعلم أن المعصية من شأن البشر ، فالضعف غريزة فيهم ينتهى إلى أول سلف منهم وهو أبوه آدم عليه السلام فقد تغلبت عليه الوسواس ، فلا تأس أيها الرسول الكريم على القوم الكافرين ولا تذهب نفسك عليهم حسرات

الإيضاح

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى اتخذ الجنة مسكناً لك ولزوجك. واختلفت آراء العلماء فى الجنة المرادة هنا ، فمن قائل إنها دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها فى هذه السورة ، وفى ظواهر السنة ما يدل عليه ، فهى إذا فى السماء حيث شاء الله منها .

ومن قائل إنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام ، وكانت بستاناً فى الأرض بين فارس وكرمان ، وقيل بفلسطين وليست هى الجنة المعروفة ، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات ، قال : نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين ، أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمن فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم اهـ .

قال الألوسى فى تفسيره روح المعانى : ومما يؤيد هذا رأى :

(١) أن الله خلق آدم فى الأرض ليكون خليفة فيها هو وذريته ، فالخلافة منهم مقصودة بالذات ، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة .

(٢) أنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم فى الأرض عرج به إلى السماء ، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم .

(٣) أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المتمدنون المؤمنون ، فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة .

(٤) أنها دار للنعيم والراحة ، لا دار للتكليف ، وقد كاف آدم وزوجه ألا يأكلَا من الشجرة .

(٥) أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها .

(٦) أنه لا يقع فيها العصيان والخلافة لأنها دار طهر ، لا دار رجس .

وعلى الجملة فالأوصاف التى وصفت بها الجنة الموعود بها ، ومنها أن عطاءها غير مجذوذ ولا مقطوع لا تنطبق على جنة آدم اه .

(وكلا منها رغداً حيث شئتما) الرغد الهنىء الذى لا عناء فيه ، أو الواسع ، يقال : رغد عيش القوم إذا كانوا فى رزق واسع كثير ، وأرغد القوم أخصبوا وصاروا فى رغد من العيش ؛ أى كلا منها أكلا هنيئاً من أى مكان شئتما ، وأباح لهما الأكل كذلك إزاحة للعذر فى تناول من الشجرة المنهى عنها من بين أشجارها التى لا حصر لها .

(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة ، فلا نستطيع أن نعينها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع ، ولأن المقصود يحصل بدون التعيين ، ولكننا نقول إن النهى كان لحكمة كأن يكون فى أكلها ضرر أو يكون ذلك ابتلاء من الله لآدم واختباراً له ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الميل إلى معرفة الأشياء واختبارها ، ولو كان فى ذلك معصية يترتب عليها ضرر . وقوله من الظالمين : أى لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها من المعصية ، أو بنقصان حظوظكما بفعل ما يمنع الكرامة والنعيم ، أو بتعدى حدود الله .

وقد علق النهى بالتقرب منها وهو مقدمة الأكل ، تنبيهاً إلى أن القرب من الشيء يورث ميلاً إليه يلهى القلب عما يوجبه العقل والشرع .

(فأزلهما الشيطان عنها) أى حملهما على الزلة بسبب الشجرة ، وقد وسوس لهما بقوله : « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ اخْلُدْ وَمُلْكٌ لَّآبَيْلَى » وقوله : « مَآئِهَا كَمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » وقسمه لهما « إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ » .

(فأخرجهما مما كانا فيه) أى من الجنة أو من النعيم الذى كانا فيه ، فاتصلت العقوبة بالذنب اتصال المسبب بسببه المباشر .

(وقلنا اهبطوا) قال الراغب : المهبوط الانحدار على سبيل القهر ، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة في ربوة فسمي الخروج منها هبوطا ، أو سمى بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه ، أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد كقوله لبيئ إسرائيل : « اهبطوا مضرا » والمأمور بالهبوط آدم وزوجه وإبليس ، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وكثير من السلف ، ويشهد له قوله : (بعضكم لبعض عدو) إذ العداوة بين الشيطان والإنسان .

(بعضكم لبعض عدو) العدو هو المجاوز حده في مكروه صاحبه ، وهو يصلح للواحد والجمع ، ومن ثم لم يقل أعداء ، فأبليس عدولهما ، وهما عدو لإبليس ، أي اهبطوا متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله .

(ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) المستقر الاستقرار والبقاء ، والمتاع الانتفاع الذي يمتد وقته ، والحين مقدار من الزمان قصيرا كان أو طويلا ، أي أن استقراركم في الأرض وتمتعكم فيها ينتهيان إلى وقت محدود وليس بدامين كما زعم إبليس حين وسوس لآدم وسمى الشجرة المنهى عنها شجرة الخلد .

وفي هذا إشارة إلى أن الإخراج من جنة الراحة إلى الأرض للعمل فيها لا للفناء ولا للعاقبة بالحرمان من التمتع بخيراتها ولا للخلود فيها .

(فتلقى آدم من ربه كلمات) تلقى الكلمات هو أخذها بالقبول والعمل بها حين علمها أي أن الله ألهمها إياها فأناوب إليه بها ، وهي كما روى عن ابن عباس : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » وروى عن ابن مسعود أنها : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ، ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

(فتاب عليه) التوب الرجوع ، فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن العصية إلى الطاعة ، وإذا وصف به البارئ تعالى أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة .

ولا تكون التوبة مقبولة من العبد إلا بالندم على ما كان ، وبترك الذنب الآن ، وبالعزم على ألا يعود إليه في مستأنف الزمان ، وبرد مظالم العباد ، وبإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه والاعتذار له باللسان .
والخلاصة — أنه تعالى قبل توبته وعاد إليه بفضلته ورحمته .

(إنه هو التواب الرحيم) التواب هو الذى يقبل التوبة عن عباده كثيراً ، فمهما اقترف العبد من الذنوب وندم على ما فرط منه وتاب تاب الله عليه ، والرحيم هو الذى يحف عباده برحمته إذا هم أساءوا ورجعوا إليه تائبين ، وقد جمع بين الوصفين (التواب الرحيم) للإشارة إلى عدة الله تعالى للعبد التائب بالإحسان إليه مع العفو عنه والمغفرة له .

وهنا مسائل ثلاث أطلال المفسرون الكلام فيها ، ونحن نوجز فيها القول .

(أ) ما أوردوه فى هبوط آدم وحواء من الجنة ووصف ذلك ، وقد نقلوا أكثره من الإسرائيليات التى لا يصح شئ منها عند النقدة من أهل العلم ورجال الدين .
(ب) خلق حواء من ضلع آدم أخذاً بظاهر قوله تعالى : « يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا » وقوله : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » ومن حديث أبى هريرة فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم « واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج » وما ورد فى سفر التكوين فى التوراة مبينا خلق آدم وحواء .

وجوابنا عن ذلك .

(أ) أن كثيراً من المفسرين قالوا إن المراد فى الآيتين بقوله (منها) أى من جنسها ليوافق قوله فى سورة الروم « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » إذ المراد دون شك ، أنه خلق أزواجا من جنسكم ، لا أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها .

(٢) أن الحديث قد جاء على طريق تمثيل حال المرأة واعوجاج أخلاقها ، باعوجاج الضلوع ، ويؤيد هذا قوله آخر الحديث « وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فهو على حد قوله تعالى : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » .

(٣) أن ما جاء في التوراة في سفر التكوين من تحديد بدء الخليقة بستة آلاف سنة قد أظهرت المشاهدة خطأ ، فقد وجد للإنسان من الآثار ما يدل على أنه أقدم كثيرا مما حددته التوراة ، فاضطر كثير من أهل الكتاب إلى التعسف في التأويل أو الجحود لما جاء في تلك الأسفار .

(ح) عصيان آدم ثم توبته ، مع أن الأنبياء معصومون من ارتكاب الذنوب ، ولنا في الجواب عن هذه المسألة ثلاث طرق :

(١) أن المخالفة التي صدرت منه كانت قبل النبوة ، والعصمة إنما تكون عن مخالفة الأوامر بعدها .

(٢) أن الذي وقع منه كان نسيانا ، فسمى عصيانا تعظيما لأمره ، والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة .

(٣) أن ذلك من التشابه كسائر ما جاء في القصة ، مما لا يمكن حمله على ظاهره ، ويجب تفويض أمره إلى الله كما هو رأي سلف الأمة ، أو هو من باب التمثيل كما رأى الخلف . وقد أجاد الأستاذ الإمام محمد عبده بيانه قال :

إن إخبار الله تعالى الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها ويكون به كمال الوجود في هذه الأرض ، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادا في العلم والعمل لا حدهما ، تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء .

فى الأرض وانتفاعه به فى استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب ، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك ، وإيلاء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد فى الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون أفراده فيه كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى ، ويراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجد فى الجنة التى هى الحديقة ما يلذ له من مأكل ومشروب ومشموم ومسموع فى ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسيل ، ويراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبى القبيلة الأكبر على القبيلة فىقال كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، ويراد بالشجرة معنى الشر والخالفة كما عبر الله تعالى فى مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر .

والمعنى على هذا - أن الله تعالى كون النوع البشرى فى أطوار ثلاثة :

(١) طور الطفولة وهو طور لاهم فيه ولا كدر ، بل هو لهو ولعب كأنه فى جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار .

(٢) طور التمييز الناقص ، وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان .

(٣) طور الرشد وهو الذى يعتبر فيه المرء بنتائج الحوادث ، ويلتجئ فيه حين الشدة إلى القوة الغيبية العليا التى منها كل شئ وإليها يرجع الأمر كله .

والإنسان فى أفراده مثال للإنسان فى مجموعه ، فقد كان الإنسان فى ابتداء حياته الاجتماعية ابتداء ساذجا سليم الفطرة مقتصر فى طلب حاجاته على التقصد والعدل

متعاوناً على دفع ما عساه يضييه من مرجحات السكون ، وهذا هو العصر الذي يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالعصر الذهبي .

ولكن لم يكفه هذا النعيم العظيم ، فمد بعض أفرادهم إلى تناول ما ليس لهم طاعة للشهوة وميلاً مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائماً في نفوس سائرهم ، فثار النزاع وعظم الخلاف ، وهذا هو الطور الثاني المعروف في تاريخ الأمم . ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهي إليها نزعات الشهوات ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

وبقى طور آخر أعلى من هذه الأطوار ، وهو منتهى الكمال ، وهو طور الدين الإلهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الإنسانية . انتهى كلامه ملخصاً .

قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

المعنى الجملى

أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط مرتين ، الأولى للإشارة إلى أنهم يهبطون من الجنة إلى دار بلاء وشقاء وتعاد واستقرار في الأرض إلى حين للمتعم بخيراتها ، والثانية لبيان حالهم من حيث الطاعة والمعصية ، وأنهم ينقسمون فريقين فريق يهتدى بهدى الله الذى أنزله وبلغه للناس على لسان رسله ، وأولئك هم الفائزون برضوانه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وفريق سار في طريق الضلال وكذب بالآيات ، وأولئك جزاؤهم جهنم خالدين فيها أبداً .

الإيضاح

(قلنا اهبطوا منها جميعاً) هذا الأمر لبيان أن طور النعيم والراحة قد انتهى وجاء طور العمل ، وفيه طريقان : هدى وإيمان ، وكفر وخسران .

(فإما يأتينكم منى هدى) الهدى الرشد بإرسال رسول بشريعة يأتى بها وكتاب ينزله ويبلغه لكم ، والخطاب لآدم والمراد ذريته .

(فمن تبع هداى) أى فمن استمسكوا بالشرائع التى أتى بها الرسل وراعوا ما يحكم العقل بصحته بعد النظر فى الأدلة التى فى الآفاق والأنفس .

(فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الخوف ألم الإنسان مما قد يصيبه من مكروه أو حرمانه من محبوب يتمتع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم به إذا فقد ما يجب .

والمؤمنون بهدى الله لا يخافون مما هوأت ولا يحزنون على ما فات ، فإن من سلك سبيل الهدى سهل عليه كل ما أصابه أو فقدته ، لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضى ربه ويوجب ثوابه ، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاتته وأحسن عزاء عما فقدته ، فمثلته مثل التاجر الذى يكذب ويسعى وتلبيه لذة الربح آلام التعب .

والأديان قد حرمت بعض اللذات التى كان فى استطاعة الإنسان أن يتمتع بها ، لضررها إما بالشخص أو بالمجتمع ، فمن تمثلت له المضار التى تعقب اللذة المحرمة وتصور ما لها من تأثير فى نفسه أو فى الأمة فرّ منها فرار السليم من الأجر ، إلى أن المؤمن بالله واليوم الآخر يرى فى انتهاك حرمت الدين ما يندس النفس ويبعدها عن الكرامة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

والخلاصة — أن من جاءه الهدى على لسان رسول بلغه إياه واتبعه فقد فاز بالنجاة وبعد عنه الحزن والخوف يوم الحساب والجزاء والعرض على الملك الديان يوم يقوم الناس لرب العالمين .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) الآيات واحدها آية وهى العلامة الظاهرة ،

ويراد بها في الكتاب الكريم كل ما يدل على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته مما أودعه في الكون ونشأه في الأنفس ، كما تطلق على كل قسم من الأقسام التي تتألف منها سور القرآن الكريم ويقف القارئ عندها في تلاوته ، والعمدة في معرفة ذلك على التوقيف المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسميت بذلك لأنها دلائل لفظية على الأحكام والآداب التي شرعها الله لعباده .

والتكذيب كفر سواء كان عن اعتقاد بعدم صدق الرسول ، أو مع اعتقاد صدقه وهو تكذيب الجحود والعناد ، وفي مثلهم يقول الله تعالى لنبيه : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتَاتِ اللَّهِ يَمْحَدُونَ » وقد يوجد الكفر بالقلب مع تصديق اللسان كما هي حال المنافقين .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أصحاب النار أى ملازموها بحيث لا يفارقونها ، فكأنهم ملكوها فصاروا أصحابها ، والخلود الدوام .
المعنى — وأما الذين لم يتبعوا هداى وهم الذين كفروا بآياتنا اعتقادا وكذبوا بها لسانا فجزاؤهم الخلود في النار بسبب جحودهم بها وإنكارهم إياها اتباعا لوسوسة الشيطان . وهذا مقابل قوله قبل : فمن تبع هداى الخ .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَأَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بذكر الكتاب وأنه لا ريب فيه ، ثم ثنى بذكر اختلاف الناس فيه : من مؤمن به ، وكافر بهديه ، ومنافق مذبذب بين ذلك ، ثم طالب الناس بعبادته ، ثم أقام الدليل على أن الكتاب منزل من عند الله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحدى المرتابين بما أعجزهم وحذرهم وأنذرهم ثم حاج الكافرين وجاءهم بأوضح البراهين وهو إحيائهم مرتين وإماتهم مرتين ، ثم ذكر خلق السموات والأرض لمنافعهم وخلق الإنسان فى أطواره المختلفة ، وهنا خاطب الشعوب والأمم التى ظهرت بينها النبوة ، فبدأ بذكر اليهود لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية ، ولأنهم كانوا أشد الناس ضغنا للمؤمنين ، ولأن دخولهم فى الإسلام حجة قوية على النصارى وغيرهم لأنهم أقدم منهم عهداً .

الإيضاح

(يا بنى إسرائيل) إسرائيل لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ومعناه صفى الله ، وقيل الأمير المجاهد ، وبنوه ذريته وهم الأسباط الاثنا عشر .

(اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الذكر (بضم الذال) بمعنى الحفظ الذى هو ضد النسيان ويكون بالقلب خاصة (وبكسر الذال) يقع على الذكر باللسان وبالقلب — المعنى احفظوا بقلوبكم نعمى بالتفكر فى شكرها باللسان ، وفى هذا إشارة إلى أنهم نسوها ولم يخطرورها ببالهم ، ولم تعين الآية هذه النعمة ولكن المراد بها نعمة النبوة التى اصطفاها بها زمانا طويلا حتى كانوا يسمون شعب الله .

وهذه المكرمة التى أوتوها والنعمة التى اختصوا بها وكانوا مفضلين على الأمم والشعوب تقتضى ذكرها وشكرها ، ومن شكرها الإيمان بكل نبى يرسله الله هداية البشر ، لكنهم جعلوا هذه النعمة حجة للإعراض عن النبى صلى الله عليه وسلم والازدراء به ، زعما منهم أن فضل الله محصور فيهم ، فلا يبعث الله نبيا إلا منهم .

(وأوفوا بعهدي أوف بعهديكم) سبق أن قلنا : إن عهد الله نوعان عهد نظري وهو الذي أخذته على جميع البشر وهو وزن الأمور بميزان العقل والتدبر والنظر الصحيح المؤدى إلى خلاء الحقائق توصلا إلى معرفة الخالق كما يرشد إلى ذلك قوله : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى » .

وعهد ديني وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن يعملوا بأحكامه وشرائعه ، وأن يؤمنوا برسوله متى قامت الأدلة على صدقهم .

ولو نظر بنو إسرائيل إلى العهد العام أو إلى العهود الخاصة المعروفة في كتابهم الذي أنزل إليهم ، ومنها (أنه سيرسل إليهم نبيا من بنى إخوتهم « إسماعيل » يقيم شعبا جديدا) لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا النور الذي أنزل معه وكانوا من الفائزين .

أما عهد الله لهم فإن يمكن لهم في الأرض المقدسة ويرفع من شأنهم ويخفف لهم العيش فيها وينصرهم على أعدائهم الكفرة ويكتب لهم السعادة في الآخرة .

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد خوف بعضهم من بعض ، ذكر هنا أن الخوف يجب أن يكون من الله وحده فقال :

(وإياي فارهبون) الرهبة خوف مع تحرز من الفعل أى لا تترهبوا ولا تخافوا إلا من بيده مقاليد الأمور كلها وهو الله الذي أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى ، وهو القادر على سلبها منكم ، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها ، ولا يرهب بعضكم بعضا خوف فوت بعض المنافع ونزول بعض الأضرار إذا أنتم اتبعتم الحق وخالفتم غيركم من الرؤساء .

وبعد أن ذكر الوفاء بالعهد العام انتقل إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال : (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) أمرهم بالإيمان بالقرآن مع دخوله في قوله :

وأوفوا بعهدي إشارة إلى أن الوفاء به أهم إذ هو العمدة القصوى والمقصد الأول ، وهو قد نزل مصدقا لما جاء في التوراة وما قبلها من كتب الأنبياء ، فالأوامر التي جاء بها

من الدعوة إلى التوحيد وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى نحو ذلك مما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، هي مثل ما دعاكم إليه موسى والأنبياء قبله ، إذ مقصد الجميع واحد وهو تقرير الحق وهداية الخلق وإزالة ما طرأ على العقائد من الضلال .

(ولا تكونوا أول كافر به) أى لا تسارعوا إلى الكفر به ، مع أن الأجدر بكم أن تكونوا أول من يؤمن به ، إذ أنتم تعرفون حقيقته مما معكم من الكتب الإلهية ، وقد كنتم تبشرون بزمانه ، وقد جاء في كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فكذبه يهودها ، ثم بنو قريظة وبنو النضير ثم خير ، ثم تنابعت على ذلك سائر اليهود .

(ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) الآيات هي الأدلة التي أيد الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأعظمها القرآن الكريم أى لا تعرضوا عن التصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به وتستبدلوا بهدياته هذا الثمن القليل الذى يستفيد الرؤساء من مرءوسيه من مال وجاه ، ويرجوه المرءوسون من الخطوة باتباع الرؤساء ويخشونه من سطوتهم إذا هم خالفوهم .

وسمى هذا البذل قليلاً لأن صاحبه يخسر رضوان الله وتحل به عقوبته في الدنيا والآخرة ، ويخسر عن الحق ويخسر عقله للإعراض عن واضح البراهين وبين الآيات . (وإياي فاتقون) بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن لذات الدنيا متى شغلت عن أعمال الآخرة .

وليس في هذا تكرار مع قوله : وإياي فارهبون ، لأن استبدال الباطل بالحق إنما كان لاتقاء الرئيس خوف منفعة تفوته من المرءوس ، واتقاء المرءوس خوف غضب الرئيس ، فطلب إليهم أن يتقوا الله وحده ، إذ بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير ، وإليه المصير .

(ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكنتموا الحق وأنتم تعلمون) اللبس بالفتج الخلط

أى لا تخططوا الحق المنزل بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه حتى لا يتيزا، ولا تكتنوا الحق الذى تعرفونه ، فالنهي الأول عن التغيرير ، والنهي الثانى عن الكتمان .

وقد أبانت الآية طريقهم فى الغواية والإغواء ، فقد جاء فى كتبهم :

(١) التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم وتكون لهم عجائب وأفاعيل تدش الألباب .

(٢) أن الله يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم به أمة ، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) وبين علامات واضحة له لا لبس فيها ولا اشتباه .

فأخذ الأحرار والرهبان يلبسون على العامة الحق بالباطل ويوهمونهم أن النبي صلى الله عليه وسلم من أولئك الأنبياء الذين وصفوا فى التوراة بالكذب ، ويكتمون ما يعرفونه من أوصاف لا تنطبق إلا عليه ، وما يعرفونه من نعوت الأنبياء الصادقين وسبيل دعوتهم إلى الله ، إلى أنهم كانوا يصدونهم عن السبيل القويم وعدم الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم بزيادات يستحدثونها وتقاليد يبتدعونها بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض سلفهم وأفعالهم ويحكمونها فى الدين ويحتجون بأن الأقدمين كانوا أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم ، فعلى من بعدهم أن يأخذ بكلامهم دون كلام الأنبياء الذى يصعب علينا فهمه بزعمهم .

لكن هذه المذخرة لم يتقبلها الله منهم ونسب إليهم اللبس والكتمان للحق الذى فى التوراة إلى يومنا هذا ، كما لم يتقبل ممن بعدهم من العلماء فى أى شريعة ودين أن يتركوا كتابه ويتبعوا كلام العلماء بتلك الحجة عينها ، فكل ما يعلم من كتاب الله يجب علينا أن نعمل به ، وما لا يعلم يسأل عنه أهل الذكر ، ومتى فهمناه وعلمناه عملنا به .

قال فى التيسير : ويجوز صرف الخطاب إلى المسلمين وإلى كل صنف منهم وبيانه أن يقال : أيها السلاطين لا تخططوا العدل بالجور ، وأيها القضاة لا تخططوا الحكم بالرشوة ، وهكذا كل فريق . فهذه الآية وإن كانت خاصة بينى إسرائيل

فهى تتناول من فعل فعلهم ، فمن أخذ رشوة على تغيير حق وإبطاله ، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه أدائه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى حكم الآية اه .

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) تقدم أن قلنا إن فى الصلاة إظهار الحاجة إلى المعبود والافتقار إليه بالقول أو بالفعل أو بكليهما ، وإقامتها هى التوجه إلى الله بقلب خاشع والإخلاص له فى الدعاء ، وهذا هو روح الصلاة الذى شرعت لأجله ، أما الصورة فليست مقصودة لذاتها ، ومن ثم اختلفت فى الشرائع على حسب الأديان والأزمان ، ولكن الروح لا تتغير فيه ولا تبدل باختلاف الأنبياء .

والزكاة الطهارة ؛ إذ فيها تطهير المال من الخبث ، والنفس من الشح والبخل .
والخلاصة — أنه بعد أن دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان أمرهم بصلاح العمل على الوجه المقبول عند الله ، فطلب إليهم إقامة الصلاة لتطهر نفوسهم كما طلب إليهم إيتاء الزكاة التى هى مظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس لما فيها من بذل المال لمواساة عيال الله وهم الفقراء ، ولما بين الناس من تكافل عام فى هذه الحياة فالغنى فى حاجة إلى الفقير والفقير فى حاجة إلى الغنى كما ورد فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وبعدئذ أمرهم بالركوع مع الراكعين أى أن يكونوا فى جماعة المسلمين ويصلوا صلاتهم ، وقد حث على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله ، وإيجاد الألفة بين المؤمنين ، ولأنه عند اجتماعهم يتشاورون فى دفع ما ينزل بهم من البأساء أو يجلب لهم السراء ، ومن ثم جاء فى الخير « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » .

وعبر عن الصلاة بالركوع ليعدهم عن الصلاة التى كانوا يصلونها قبلا إذ لا ركوع فيها .

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

شرح المفردات

البر سعة الخير ومنه البر والبرية للفضاء الواسع ، والصبر حبس النفس على
ما تكره ، أو هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم ، كبيرة
أى ثقيلة شديدة الوقع ، والخاشعين هم المحبتون الخائفون المتطامنة جوارحهم وقلوبهم
لله تعالى ، يظنون أى يستيقنون ، ولقاء الله هو الحشر إليه ، والرجوع إليه هو المجازاة
ثواباً أو عقاباً .

المعنى الجملى

الخطاب هنا لبنى إسرائيل كما كان فيما قبله ، وقد منحهم على اعوجاج سيرتهم
وفساد أعمالهم ، وهداهم إلى الخرج من هذه الضلالات ، ذاك أن اليهود كانوا يدعون
الإيمان بكتابهم والعمل به والحفاظ على عليه وتلاوته ، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق
تلاوته ، إذ حق تلاوته هو الإيمان به على الوجه الذى يرضاه الله تعالى ، لكن
الأخبار والرهبان كانوا الأمرين الناهين لا يذكرون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم
ولا يعملون بما فيه من الأحكام إذا عارض شهواتهم .

فقد جاء فى التوراة فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم (أنه يقيم من إخوانهم
نبيا يقيم الحق) وجاء فى سفر تثنية الاشتراع (١٧) قال لى الرب أحسنوا فيما تكلموا
(١٨) سوف أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك وأجعل كلامى فى فم فيكلمهم
بكل ما أوصيه به (١٩) ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به
باسمى ، أنا أكون المنتقم منه .

فحرفوا هذه البشارة به وأولوها بما يوافق أهواءهم .

وكانت لهم مواسم دينية تذكّرهم بنعم الله عليهم وتكون باعثاً على إقامة الدين والعمل به ، لكن طول العهد جعل القلوب قاسية فخرجت عن تعاليم الدين واتباع الخير وسلوك طريق الرشاد ، واستمسك الأخبار بالظواهر وقدم في ذلك العامة ، فما كانوا يعرفون من الدين إلا العبادات العامة والمراسم الدينية ، وما عدا ذلك مما لا فائدة لهم فيه ولا هوى ياجتئون فيه إلى التأويل والتحريف حتى لا يصادم أهواءهم وشهواتهم .

الإيضاح .

(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) الخطاب موجه إلى حملة الكتاب من الأخبار والرهبان فقد روى عن ابن عباس أن الآية نزلت في أخبار المدينة ، كانوا يأمرون من نصحوه سرا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به ، وقال السدى : إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يفعلون ما ينهون عنه .

والمراد من النسيان هنا الترك ، لأن من شأن الإنسان ألا ينسى نفسه من الخير ولا يحب أن يسبقه أحد إلى السعادة ، وعبر به عنه للبالغة في عدم المبالاة والغفلة عما ينبغي أن يفعله ، أى إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه فكيف نسيت أنفسكم .

ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من التوبيخ والتأنيب الذى ليس بعمد زيادة لمستزيد ، فإن الأمر بما لا ياتمر به تكون الحجة عليه قائمة بلسانه .

(وأنتم تتلون الكتاب) فتعرفون منه ما لا يعرفه من تأمر ونهيهم باتباعه ، والفرق عظيم بين من يفعل وينتقصه العلم بفوائده ما يفعل ، ومن يترك وهو عليم بما يترك . (أفلا تعقلون) أى أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه ويحذركم وخامة

عاقبته ، فإن من عنده أدنى مُسْكَة من العقل لا يدعى كمال العلم بالكتاب ، ويقوم بالإرشاد إلى هديه ، ويبين للناس سبيل السعادة باتباعه ، ثم هو بعد لا يعمل به ولا يستمسك بأوامره ونواهيه .

وهذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى اليهود فهو عبرة لغيرهم ، فلتنظر كل أمة أفراداً وجماعات في أحوالها ، ثم لتحذر أن يكون حالها كحال أولئك القوم فيكون حكمها عند الله حكمهم ، فالجزاء إنما هو على أعمال القلوب والجوارح لا على صنف خاص من الشعوب والأفراد .

وبعد أن بين سبحانه سوء حالهم وذكّر أن العقل لم ينفعهم والكتاب لم يذكرهم ، أرشدهم إلى الطريق المثلى وهي الاستعانة بالصبر والصلاة فقال :

(واستعينوا بالصبر والصلاة) الصبر الحقيقي إنما يكون بتذكّر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة التي تميل إليها النفس وعمل أنواع انطاغات التي تشق عليها ، والتفكير في أن المصائب بقضاء الله وقدره ، فيجب الخضوع له والتسليم لأمره ، والاستعانة به تكون باتباع الأوامر واجتناب النواهي بقمع النفس عن شهواتها وحرمانها لذاتها .

والاستعانة بالصلاة لما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر ، ولما فيها من مراقبة الله في السر والنجوى ، ونهايك بعبادة يناجي فيها العبد ربه في اليوم خمس مرات ، وقد روى أحمد رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وروى أن ابن عباس نعت له بنت وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق وصلى ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

(وإنها لسكبيرة إلا على الخاشعين) أى وإن الصلاة لشاقة صعبة الاحتمال إلا على الخبتين لله الخائفين من شديد عقابه ، وإنما لم تثقل على هؤلاء لأنهم مستغرقون في مناجاة ربهم فلا يشعرون بشيء من المتاعب والمشاق ، ومن ثم قال صلى الله

عليه وسلم « وقرة عيني في الصلاة » لأن اشتغاله بها كان راحة له ، وكان غيرها من أعمال الدنيا تعباً له .

ولأنهم مترقبون ما ادخروا من الثواب فتهون عليهم المشاق ، ومن ثم قيل للربيع ابن خيثم وقد أطال صلاته « أتعبت نفسك ، قال راحتها أطلب » وقيل : من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية . ثم وصف الخاشعين بأوصاف تقر بهم إلى ربهم وتدعوهم للأخبات إليه . فقال :

(الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون) أى لا تثقل الصلاة على الخاشعين الذين يتوقعون لقاء ربهم يوم الحساب والجزاء ، وأنهم راجعون إليه بعد البعث فيجازيهم بما قدموا من صالح العمل .

وعبر بالظن للإشارة إلى أن من ظن اللقاء لا تشق عليه الصلاة ، فما ظنك بمن يتيقنه ، ومن ثم كان الاكتفاء بالظن أبلغ في التقرير والتوبيخ ، فكأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم لم يصل إيمانهم بكتابهم إلى درجة الظن الذى يأخذ صاحبه بالأحوط في أعماله .

يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

شرح المفردات

الشفاعة من الشفع ضد الوتر ، لأن الشفيع ينضم إلى الطالب في تحصيل ما يطلب فيصير معه شفعاً بعد أن كان وتراً ، والعدل القدية ، وأصل العدل (بالفتح) ما يساوى الشيء قيمة وقدرًا وإن لم يكن من جنسه ، (وبالكسر) المساوى في الجنس والحجم ، والنصرة أخص من المعونة لأنها مختصة بدفع الضرر .

المعنى الجملى

كرر تذكيرهم بالنعم لكمال غفلتهم عما يجب عليهم من شكرها ، وقد ذكرت فيما سبق مقترنة بوعد الله لهم بالنصر على الأعداء وسكنى الأرض المقدسة ، واقتربت هنا بالوعيد وانتفاء عقاب الله فى ذلك اليوم الشديد الهول الذى لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، فكأنه قد قيل لهم إن لم تطيعوا الله لنعمه السالفة فأطيعوه للخوف من عقابه اللاحق .

وفى هذا التقرير والتوبيخ ما يدل على قساوة قلوبهم ، فإن من شعر بقدر نفسه إذا خلا ونفسه وتذكر أنه ألم بنقيصة يتألم ولم ير من اللائق به أن يدنسها مرة أخرى برذيلة .

الإيضاح

(يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) هذا تأكيد لما تقدم وتمهيد لما عطفه عليه من التذكير بالترفضيل الذى هو من أجل النعم .

(وأنى فضلتكم على العالمين) أى أعطيتكم الفضل والزيادة على غيركم من الشعوب ، حتى الأمم ذات الحضارة والمدنية كالمصريين وسكان الأراضى المقدسة . وقد ناداهم باسم أبيهم لأنه منشأ فخارهم وأصل عزهم ، وأسند النعمة والفضل إليهم جميعا شمولها إليهم ، والترفضيل إنما أتاهاهم لتمسكهم بالفضائل وتركهم للردائل ، إذ من يرى نفسه مفضلا شريفا يترفع عن الدنيا .

وذكرهم بهذا الفضل لينبههم إلى أن الذى فضاهم على غيرهم له أن يفضل غيرهم كمحمد صلى الله عليه وسلم وأمه ، وإلى أنهم أجدر من جميع الشعوب بالتأمل فيما أوتيه النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات ، فإن الفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل عليه .

وهذا الفضل إن كان بكثرة الأنبياء فلا مزاحم لهم فيه ، ولا تقتضى هذه الفضيلة

أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم ، ولا تمنع أن يفضاهم أحسن الشعوب إذا انحرفوا عن جادة الحق وتركوا سنة أنبيائهم واهتدى بهديها غيرهم ، وإن كان بالقرب من الله باتباع شرائعه ، فذلك إنما يتحقق في أولئك الأنبياء والمهتدين من أهل زمانهم ومن تبعهم بإحسان ماداموا على الاستقامة وسلكوا الطريق الذى استحقوا به التفضيل .

(واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا) أى واخشوا يوما يقع فيه من الأهوال ما لا قدرة لكم على دفعه ، ولا منجاة لكم منه إلا بتقوى الله فى السر والعلن ، يوم لا تحمل نفس أوزار نفس أخرى كما قال تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » وقال : « وَإِنْ تَدْعُ مُثَمَّلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » وقال : « يَوْمَ يَبْعَثُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمَّهُ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ » وقال : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(ولا يقبل منها شفاعة) أى أنها إذا جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها .
(ولا يؤخذ منها عدل) أى ولا يؤخذ منها فداء إن هى استطاعت أن تأتى بذلك .

(ولاهم ينصرون) أى يمتنعون من العذاب .
والخلاصة — أن ذلك يوم تنقطع فيه الأسباب ، وتبطل منفعة الأنساب ، وتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع المكروه عن النفس بالفداء أو بشفاعة الشافعين ، عند الأمراء والسلاطين ، أو بأنصار ينصرونه بالحق والباطل على سواء ، وتضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص فى العمل قبل حلول الأجل ، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله .

وقد كان اليهود كغيرهم من الأمم الوثنية يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا ، فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العذاب بفداء يدفع ، أو بشفاعة بعض المقرين إلى الحاكم فيغير رأيه وينقض ما عزم عليه .

نجاه الإسلام ومحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون أنه لا ينفع في ذلك اليوم إلا مرضاة الله بالعمل الصالح والإيمان الذي يبلغ قرارة النفس ويتجلى في أعمال الجوارح .

[تنبيه] : هناك مسألة أكثر خوض الناس فيها وأطالوا الجدل والأخذ والرد ، وهي مسألة الشفاعة العظمى شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأمته يوم القيامة ، وهاك بيانها :

جاء في القرآن الكريم آيات تفيد نفيها مطلقاً ، ومن ذلك قوله تعالى في وصف يوم القيامة « لَا يَبْعُثُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » وآيات تفيد ثبوتها متى أذن الله ، ومن ذلك قوله : « يَوْمَ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى » .

من أجل هذا اختلف العلماء فرقتين : أولاهما تثبت الشفاعة وتحمل ما جاء من الآيات في نفيها مطلقاً على ما جاء منها مقيداً فلا تكون شفاعة إلا إذا أذن الله ، وثانيتهما تنفيها مطلقاً وتقول إن معنى (إلا بإذنه) هنا النفي ، وهذا أسلوب معروف لدى العرب في النفي القطعي كقوله : « سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » وقوله : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » .

وإذا فليس في القرآن الكريم نص قاطع في ثبوتها ، ولكن جاء في السنة الصحيحة ما يؤيد وقوعها كقوله صلى الله عليه وسلم « شفاعة لأهل الكبائر من أمتي ، فمن كذب بها لم ينلها » .

فيجب علينا أن نحدد معناها والمراد منها ، وهل تكون في الآخرة كما هي في الدنيا .

الشفاعة المعروفة في دنيانا أن يحمل الشفيع من يشفع عنده على فعلٍ أو تركٍ كان يريد غيره ، فلا تتحقق فائدة الشفاعة إلا بترك ما أراد المشفوع لديه وفسخ ما عزم عليه لأجل الشفيع ، والحاكم العادل لا يقبل الشفاعة بهذا المعنى ، ولكن يقبلها الحاكم الظالم المستبد فيقضى بما يعلم أنه ظلم وأن العمدل خلافه ، ويفضل ارتباطه بأواصر القرى أو الصداقة للشافع على العدالة ، ومثل هذا محال في الآخرة

على المولى جل وعلا ، لأن إرادته على حسب علمه الأزلى الذى لا تغيير فيه ولا تبدل ، وإذا فما ورد من الأحاديث يكون من التشابه الذى يرى السلف تفريض الأمر فيه إلى الله دون أن نحيط بحقيقته ونكشف المراد منه ونزله الله عن الشفاعة التى نشاهد مثالها فى الحياة الدنيا ، وغاية ما نستطيع أن نقول : إنها منزلة يختص الله بها من يشاء من عباده عبر عنها بلفظ (الشفاعة) ولا ندرك حقيقتها

ويرى المتأخرون ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنها دعاء يدعو به النبي صلى الله عليه وسلم فيستجيبه المولى جل وعلا كما يفهم من رواية الصحيحين وغيرها أن النبي صلى الله عليه وسلم يسجد يوم القيامة ويثنى على الله بثناء يُلهمه يومئذ فيقال له ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، وليس فى الشفاعة بهذا المعنى رجوع المولى عن إرادته لأجل الشافع ، وإنما هى إظهار كرامة للشافع بتنفيذ ما أَرَادَهُ اللهُ أَزْلاً عقب دعائه ، فليس فيها ما يسدّ نهج الغرورين الذين يتهاونون فى أوامر الدين ونواهيه اعتماداً منهم على الشفاعة كما قال : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُغْرِضِينَ » .

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَظِيمٌ (٤٩)

المعنى الجملى

فصل فى هذه الآية نعمة مما أنعم به على هذا الشعب العظيم ، ذكر فيها ما حل بهم من العذاب والبلاء جزاء ما صنعوا من جرائم وارتكبوا من آثام ، ثم ما كان من لطف الله بهم إذ رفع عنهم البلاء ليتوبوا ويعرفوا قدر نعمته عليهم كما قال : « وَبَلَّوْنَاَهُمُ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

وقد امتن على اليهود الذين كانوا عصر التنزيل بنعمة كانت لأبائهم ، لأن الإنعام على أمة إنعام شامل لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك ومن لم يصبه ، لما يكون له من الأثر في مجموع الأفراد يرثه الخلف عن السلف ، فنصنف البلاء التي ذكر بها اليهود في القرآن كانت للشعب من جرّاء جرّام وقعت من مجموعته .

وقد روى المؤرخون أن أول من دخل مصر من بنى إسرائيل يوسف عليه السلام وانضم إليه إخوته بعد وتكاثر نسلهم حتى بلغوا في مدى أربعمئة سنة نحو ستمئة ألف حين خرجوا من مصر باضطهاد فرعون وقومه لهم ، إذ قد رأى تبسط اليهود في البلاد ومزاجتهم للمصريين ، فراح يستذلهم ويكلفهم شاق الأعمال في مختلف المهن والصناعات ، وهم مع ذلك يزدادون نسلا ، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم لا يشركون المصريين في شيء ولا يندمجون في غمارهم ، إلى ما لهم من أنانية وإباء وترفع على سواهم ، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله وأفضل خلقه ، فقال المصريون ما رأوا وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم ويستأثروا بخيراتهما ويتزعموها من بين أيديهم ، وهم ذلك الشعب النشط المجد العامل المفكر ، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرائهم واستحياء بناتهم ، فأمر فرعون القوابل أن يقتلن كل ذكر إسرائيلي حين ولادته .

والعبرة من هذا القصص أنه كما أنعم على اليهود ثم اجترحوا الآثام فعاقبهم الله بصنوف البلاء ثم تاب عليهم وأنجاهم ، أنعم على الأمة الإسلامية بضروب من النعم ، فقد كانوا أعداء فألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا ، وكانوا مستضعفين في الأرض فمكّن لهم وأورثهم أرض الشعوب القوية وجعل لهم فيها السلطان والقوة وجعلهم أمة وسطا لا تفريط لديها ولا إفراط ليكونوا شهداء على من أفرطوا أو قصرُوا .

ثم لما كفروا بهذه النعم أذاقهم الله ألواناً من العذاب على يد التتار في بغداد ، وفي الحروب الصليبية إذ جاس الغربيون خلال الديار الإسلامية ، ولا يزالون يتنقصون

بلادهم من أطرافها ويضربون عليهم العذاب وهم لاهون ساهون ، وكلما حلت بهم كارثة أو أصابتهم جائحة أحوالوا الأمر فيها على القضاء والقدر دون أن يتعرفوا أسبابها ويبادروا إلى علاجها ويكونوا يدا واحدة على رفع ما يحل بهم من النكبات ويدهمهم من الويلات .

الإيضاح

(وإذ نجيناكم من آل فرعون) النجوا المسكان العالى من الأرض ، لأن من صار إليه يخلص وينجو ، ثم سمي كل فائز ناجيا لخروجه من الضيق إلى السعة ، والآل من آل يثول بمعنى رجع لأنه يرجع إليك فى قرابة أو رأى أو مذهب ، ولا يضاف إلا لذوى القدر والخطر ، وفرعون لقب لمن ملك مصر قبل البطالسة ككسرى ملك الفرس ، وقيصر ملك الروم ، وخاقان ملك الترك ، وتبّع ملك اليمن ، والنجاشى ملك الحبشة .

أى اذكروا وقت تنجيننا إياكم أى تنجية آبائكم ، وتنجيتهم تنجية لأعقابهم ، وهو استعمال تعهده العرب فى كلامها ، يقولون قتلناكم يوم عكاظ أى قتل آباؤنا آباءكم .

(يسومونكم سوء العذاب) سامه كلفه ، والسوء السىء القبيح ، وسوء العذاب أفظعه وأشدّه أى يكلفونكم ما يسوءكم ويذلّم من العذاب ، ثم فصل هذا العذاب بقوله :

(يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى يقتلون الذكور ويستبقون البنات إذلالاً لكم حتى ينقرض شعبكم من البلاد .

(وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) البلاء الاختبار والامتحان ، وهو تارة يكون بما يسر ليشكر العبد ربه ، وتارة بما يضر ليصبر ، وحينما بهما ليرغب ويرهب ، أى وفى ذلكم العذاب والتنجية منه امتحان عظيم من ربكم كما قال تعالى :

« وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ » وقوله : من ربكم أى من جيته تعالى بتسليطهم عليكم
وبعث موسى وتوفيقه لخلاصكم .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذَا وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ
بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ (٥٣)

شرح المفردات

الفرق الفصل بين الشيئين ، والبحر هو بحر القلزم فرقه الله اثنتى عشرة فرقة
بعدد أسباط بنى إسرائيل ، والسبط ولد الولد ، وهو من بنى إسرائيل كلقبائل من
العرب ، والعفو محو الجريمة بالتوبة ، والكتاب التوراة ، والفرقان الآيات التى
أيد الله بها موسى ودلت على صدق نبوته وبها يفرق بين الحق والباطل ، والشكر
لن فوقك بطاعته ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولن دونك بالإحسان إليه .

المعنى الجملى

فى الآية الأولى تفصيل لجمل ما ذكر فى الآية السالفة من الإنجاء وتصوير
لحصوله وعظيم هوله وكونه من خوارق العادات ، وفى تضاعيف ذلك ذكر لهم نعمة
أخرى وهى هلاك عدوهم فرعون وقومه وهم ينظرون ، ثم ذكر النعمة التى تلتها وهى
العدة بإعطاء التوراة وكفرهم بها باتخاذهم عجلا من ذهب وعبادتهم إياه ، ثم عفو
عنهم بعد ذلك ، ثم قفى على ذلك بذكر إيتائهم الكتاب وهى المنة الكبرى مع
الآيات التى أيد بها موسى لتصديق نبوته .

روى المؤرخون أن الله لما أرسل موسى إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الإيمان به ويطلب إليهم إطلاق الشعب الإسرائيلي وترك تعذيبه والعسف به ، زاد فرعون في تعذيبهم وسامهم الخسف وشدّد عليهم النكال والتعذيب .

ويؤيد هذا ما جاء في سفر الخروج من التوراة ، أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه سيجعل قلب فرعون فاسيا على بنى إسرائيل ويزيد في النكال بهم ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته .

فبعد أن دعاه موسى إلى الإيمان زاد ظلما وعتوا ، فأمر الذين كانوا يسخرون بنى إسرائيل في الأعمال الشاقة أن يزيدوا في التسوة عليهم ، وأن يمنعهم التبن الذى كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفوهم أن يجمعوه ويعملوا كل ما يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شيء .

فأعطى الله موسى وأخاه هرون الآيات ، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهرون ، ورأى من الآيات ما رأى سمح بخروج بنى إسرائيل بل طردهم طرداً .

وفى سفر الخروج أنهم خرجوا فى شهر أيب بعد أن أقاموا بمصر ثلاثين وأربعائة سنة من عهد يوسف عليه السلام ، ثم أتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأنجى الله بنى إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه .

وقد كان فرّق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التى يظورها الله تعالى على أيديهم لترشد الناس إلى أن السنن والنواميس الكونية لا تحكم على واضعها ومدبرها ، بل هو الحاكم المتصرف فيها ، وهى أيضا سنة أخرى فى الكون يخلقها الله متى شاء على يد من يصطنيه من عباده .

وزعم بعض الناس أن عبور بنى إسرائيل البحر كان وقت الجزر ، وفى بحر القلزم (البحر الأحمر) رقارق يتيسر للانسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديدا ، وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض قد جعلوا الماء الرقارق فرقين

عظيمين ممتدين كالطود العظيم ، يرشد إلى ذلك قوله : « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ »
ولم يقل فرقنا لكم البحر .

وقوله : « فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » تشبيه معروف معهود مثله
في مقام المبالغة كقوله : « وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وقوله : « وَمِنْ
آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » ألا ترى أن الأمواج والسفن الجوارى لا تكون
كشواهد الجبال ، لكنه يراد بمثل هذا التعبير زيادة البيان وإرادة التأثير
في نفس السامع .

ولما أتبعهم فرعون وجنوده ورآهم قد عبروا البحر مشى إثمهم ، وكان المد قد بدأ
ولم يتم خروج بنى إسرائيل إلا وقد علا المد وطغى حتى أغرق المصريين جميعا ،
وتحقت نعمة الله على بنى إسرائيل وتم لهم التوفيق ولعدوهم الخذلان ، ونعم الله
بغير طريق المعجزات أتم وأكثر ، فليس بلزوم أن نجعل الامتتان في كونه معجزة
لموسى عليه السلام اه .

ومثل هذا التأويل ليس بضائر إذا كان أربابه يثبتون صدور خوارق العادات
على يد الأنبياء تأييدا من الله لهم ، أما إذا أنكروها فلا حاجة إلى الكلام معهم ،
إذ لا بد أن ثبت لهم قدرة الله وإرادته ، ثم ثبت لهم إمكان الوحي وإرسال
الرسول وتأيدهم بالمعجزات .

الإيضاح

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) أى واذا كروا من نعمتنا عليكم نعمة فرق البحر بكم
وجعلنا لكم فيه طرقا تسلكونها حين هربكم من فرعون .

(فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) أى فأنجيناكم من الغرق
وأخرجناكم إلى الشاطئ الآخر ، وأغرقنا فرعون ومن معه حين عبروا وراءكم ، وأنتم
تشاهدون ذلك بأبصاركم ولا تشكون في حصوله ، ولولا ذلك لكان لكم وجه للريبة

والشك في وقوعه ، والفائدة من قوله : (وأتم تنظرون) بيان تمام النعمة ، فإن هلاك العدو نعمة ، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى فيها سرور لا يقدر قدره .

(وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأتم ظالمون)
أى واذكروا نعمة أخرى كفرتم بها وظلمتم أنفسكم ، ذلك أنهم بعد أن اجتازوا البحر سألوهم موسى أن يأتيهم بكتاب من ربهم ، فواعدهم ربه أن يعطيه التوراة وضرب له ميثاقاً لذلك ، يقولون إنه ذو القعدة وعشر ذى الحجة ، فاستبطنوه واتخذوا عجلاً من ذهب له خوار فعبدوه وظلموا أنفسهم بإشراكهم ووضعهم للشيء فى غير موضعه بعبادة العجل بدل عبادة خالقهم وخالقه .

وفى ذكر هذا تعجيب من حالهم ، فإن مواعدة الله موسى بإنزال التوراة إليه نعمة وفضيلة لبني إسرائيل قابلوها بأقبح أنواع الكفر والجهل .

(ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون) أى ثم محونا تلك الجريمة بقبول التوبة ولم نعالجكم بالإهلاك ، بل أمهلناكم حتى جاءكم موسى وأخبركم بكفارة ذنوبكم ، ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ، فإن الأنعام يوجب الشكر على النعم .

(وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) أى واذكروا نعمة إيتاء التوراة والآيات التى أيدنا بها موسى ، لتهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما تحويه من الشرائع ليُعَدَّكم للاسترشاد بها حتى لا تقعوا فى وثنية أخرى .

وإن من كمال الاستعداد لفهم الكتاب أن تعرفوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، دليل على صحة نبوته ، فتؤمنوا به وتهتدوا بهديه وتتبعوا سبيل الرشاد الذى سلكه .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ
 الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ
 عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ
 يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
 تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)
 وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
 مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

شرح المفردات

برأه : ذراه وأوجده ، والصاعقة نار محرقة تنزل من السماء ، وسبيلها اتحاد كهربائية
 السحاب المختلفة النوع سالبها بموجبها ، أو اتحادها مع كهربائية الأرض السالبة ،
 بعثناكم أى أ كثرنا نسلكم ، والمَنَّاء مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع على الحجر
 وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس ، والسلوى السَّمَاوِي
 (السمان) الطائر المعروف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أنواعا من النعم التى آتاهها بنى إسرائيل
 كلها مصدر فخار لهم ، ولها تهتز أعطافهم خيلاء وكبرا لما فيها من الشهادة بعناية الله
 بهم ، فبين فى أولها كبرى سيئاتهم التى بها كفروا أنعم ربهم وهى اتخاذهم
 العجل إلها ، ثم ختمها بذكر العفو عنهم ، ثم قفى على ذلك بذكر سيئة أخرى لهم
 ابتدعوها تعنتا وتجبرا وطفيانا وهى طلبهم من موسى أن يرهبهم الله عيانا حتى يؤمنوا به .
 فأخذتهم الصاعقة وهم يرون ذلك رأى العين ، ثم أردف ذلك بذكر نعمتين أخريين .

كفروا بهما ، أولاها تظليل الغمام لهم فى التيه إلى أن دخلوا الأرض المقدسة ، وإنزال
المن والسلوى عليهم مدة أربعين سنة .

وفى ذكر النعمة يتخللها سوق ما يفرط من أصحابها من السيئات ما يجعل النفوس
قلقة مضطربة يتجاذبها عاملان : عامل الاعتراف لها بالشرف ، وعامل رميها بالظلم
والسرف ، وهذا مما يورث فى النفوس المخاوف وتملكها منه الوسوس .

الإيضاح

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظالمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) أى واذا كرأيها
الرسول فيما تلقيه على بنى إسرائيل وغيرهم من العظاات ، قول موسى لقومه الذين
عبدوا العجل حين كان يناجى ربه : يا قوم إنكم باتخاذكم العجل إلها قد أضلررتم
بأنفسكم وأنقصتم مالها من الأجر والثواب عند ربكم لو أنكم أقمت على عهدى واتبعتم
شريعتى ، وقد فصلت هذه القصة فى سورتى الأعراف وطه .

(فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) أى فاعزموا على التوبة إلى من خلقكم
وميز بعضكم من بعض بصور وهياات مختلفة ، وفى قوله إلى بارئكم إيماء إلى أنهم
بلغوا غاية الجهل ، إذ تركوا عبادة البارئ وعبدوا أغبي الحيوان وهو البقر ، وليقتل
البرىء منكم المجرم ، وإنما جعلهم أنفسهم للإشارة إلى أن المؤمنين إخوة ، فأخو
الرجل كأنه نفسه كما قال تعالى : « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أى لا تغتابوا إخوانكم
من المسلمين .

وقصة القتل مذكورة فى التوراة التى يتدارسونها إلى اليوم ، فيها — دعا موسى :
مَنْ لِلرَّبِّ فِإِلَى ، فأجابه بنو لاوى فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضا
ففعّلوا ، فقتل فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل ، والعبرة من القصة لا تتوقف
على عدد معين فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرض له .

(ذلكم خير لكم عند بارئكم) أى ما ذكر من التوبة والقتل أنفع لكم

عند الله من العصيان والإصرار على الذنوب لما فيه من العذاب ، إذ أن القتل يظهركم من الرجس الذي دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلاً للتواب .

(فتاب عليكم) أى فعلتم ما أمركم به موسى فقبل توبتكم وتجاوز عن سيئاتكم .
(إنه هو التواب الرحيم) أى إنه هو الذى يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويقبلها منهم ، وهو الرحيم بمن ينيب إليه ويرجع ، ولولا ذلك لعجل بإهلاككم على ما اجترحتم من عظيم الآثام .

(وإذ قلتم يا موسى لنْ نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) أى واذكروا قول السبعين من أسلافكم الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور للاعتذار عن عبادة العجل : لن نصدقك فى قولك إن هذا كتاب الله ، وأنت سمعت كلامه ، وأن الله أمر بقبوله والعمل به حتى نرى الله عياناً لا سائر بيننا وبينه ، فيكون كالجهر فى الوضوح « والجهر فى المسموعات كالمعينة فى المبصرات » .

(فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) أى فأخذت الصاعقة من قال ذلك ، والباقيون ينظرون بأعينهم ، وقد فصل ذلك فى سورة الأعراف ، وفى التوراة أن طائفة منهم قالوا لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا ، وشاع ذلك فى بنى إسرائيل وقالوا لموسى بعد موت هارون إن نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم وإسحاق فتعم الشعب جميعه ، وأنت لست أفضل منه ، فلا يحق لك أن تسودنا بلا مزية ، وإنا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقيين وهكذا كان حال بنى إسرائيل مع موسى يتمردون ويعاندون ، وسوط العذاب يصب عليهم صبا ، فأضيوا بالآوبئة وأنواع الأمراض وسلطت عليهم هوام الأرض وحشراتهما حتى فتكت بالعدد العديد والخلق الكثير ، فليس بدع منهم أن ييحدوا دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ويعاندوها .

(ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) يرى بعض المفسرين أن الله

أحياء بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبية لغيرهم ، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل أى أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظن أنهم سينقرضون بآرك الله فى نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التى تتمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها .

وإنما قص الله علينا هذا القصص ووجهه إلى من كان من اليهود فى عصر التنزيل لبيان وحدة الأمة ، وأن ما يبيلوها به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما هو لمعنى فيها يسوغ أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع منه ، ليعلم الناس أن الأمم متكافئة ، سعادة الفرد منها مرتبطة بسعادة سائر الأفراد ، وشقاؤه بشقائهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب فى الأمة وإن لم يفعلها هو كمال قال : « وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وفى هذا التكافل رقى الأمة وتقدمها فى المدنية والحضارة ، إذ يحملها على التعاون فى البأساء والضراء فتحوز قصب السبق بين الأمم .

(وظللنا عليكم الغمام) ذاك أنهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر وقعوا فى صحراء فأصابهم حر شديد فشكوا إلى موسى فأرسل الله إليهم الغمام يظللهم حتى دخلوا أرض الميعاد .

(وأنزلنا عليكم المن والسلوى) ما منحه الله لعباده يسمى إيجاده إنزالا كما جاء فى قوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ » وقد قالوا إن المن كان ينزل عليهم نزول الضباب من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وتأتيهم السَّمَاءُ فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه إلى الغد .

(اكلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا من ذلك الرزق الطيب ، وفى سفر الخروج — أنهم أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرفاق بالمثل ، وكان لهم بدل الخبز إذ كانوا محرومين من البقول والخضر .

(وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى فكفروا تلك النعم الجزيلة ، وما عاد ضرر ذلك إلا عليهم باستيحيابهم عذابي وانقطاع ذلك الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مثونة ولا مشقة .

وفى هذا إيماء إلى أن كل ما يطلبه الله من عباده فإنما نفعه لهم ، وما ينهاهم عنه فإنما ذلك لدفع ضرر يقع عليهم ، وقد جاء فى الحديث القدسى « فكل عمل ابن آدم له أو عليه » وهو بمعنى قوله : « لكما ما كسبت وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبْتَ » وقوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَاكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا
عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

شرح المفردات

القرية لغة : مجتمع الناس ومسكن النمل ثم غلب استعمالها فى البلاد الصغيرة ، وليس ذلك بالمراد هنا بل المراد المدينة الكبيرة لأن الرغد لا يتسنى إلا فيها ، والرغد الهنىء ذو السعة ، والباب هو أحد أبواب بيت المقدس ويدعى الآن (باب حِطَّة) ، وسجدا أى ناكسى الرؤوس . والحسن من فعل ما يحمل فى نظر العقل ويحمد فى لسان الشرع ، ويقال بدلت قولاً غير الذى قيل . أى جئت بذلك القول مكان القول الأول ، والرجز العذاب .

المعنى الجملى

ذكر الله فى هاتين الآيتين بعض ما اجترحوه من السيئات ، فقد أمرهم أن يدخلوا قرية من القرى خاشعين لله فعصى بعضهم وخالف أمر ربه فأنزل عليهم عذاباً من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصى واقترفوه من الآثام .

الإيضاح

(وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) لم يعين الكتاب الكريم هذه القرية فلا حاجة إلى تعيينها ، وهم قد دخلوا بلادا كثيرة وإن كان المروى عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم أنها بيت المقدس .

(فكلوا منها حيث شئتم رغداً) أى فكلوا منها أكلا هنيئاً ذا سعة فى أى مكان شئتم .

(وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) أى وادخلوا باب حطة خشعاً ناكس الرأس تواضعاً لله ، وقد يكون المعنى إذا دخلتم الباب فاسجدوا لله شكراً على ما أنعم عليكم إذ أخرجكم من التيه ونصركم على عدوكم وأعادكم إلى ما تحبون ، وقولوا نساءلك ربنا أن تحط عنا ذنوبنا وخطايانا التى من أهمها كفران النعم .

(نغفر لكم خطاياكم) أى إذا فعلتم ما ذكر استجبنا دعاءكم وكفرنا خطاياكم .

(وسنزيد المحسنين) أى وسنزيد المحسنين ثواباً من فضلنا ، وقد أمرهم بشيئين عمل يسير وقول صغير ووعدهم بغفران السيئات وزيادة الحسنات .

(فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم) أى خالفوا الأمر ولم يتبعوه ، وجعل الخالفة تبديلاً إشارة إلى أن الذى يؤمر بالشىء فيخالفه كأنه أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بغيره ، وليس المراد أنهم أمروا بحركة يأتونها وكلمة يقولونها على سبيل التعبد وجعل ذلك سبباً لغفران الذنوب عنهم ، فمالوا غيرها وخالفوا الأمر وكانوا من الفاسقين ، فما أسهل الكلام على الناس يحركون به ألسنتهم ، وإنما يعصى العاصى ربه إذا كلف ما يثقل عليه ، وحمل غير ما اعتاد ، لما فى ذلك من ترك النفس ما ألفت ، واستيحاشها من غير ما عرفت .

(فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) لم يعين الكتاب هذا الرجز فنتركه مبهماً ، وإن كان كثير من المفسرين قالوا إنه الطاعون ، وقد ابتلى

الله بنى إسرائيل بضروب من النقم عقب كل نوع من أنواع الفسوق والظلم ، فأصيبوا بالطاعون كثيراً وسطاً عليهم أعداؤهم ، وقوله بما كانوا يفسقون أى بسبب تكرار فسقهم وعصيانهم ومخالفتهم أوامر دينهم .

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا
وَشَرِبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْمَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

شرح المفردات

استسقى : طلب السقيا عند عدم الماء أوقلته ، قال أبو طالب يمدح النبي صلى الله عليه وسلم .

وَأَيُّضَ يُسْتَسْقَى الْغَنَامُ بُوْجِهَهُ ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصَةً لِلْأَرَامِلِ

والانفجار والانبجاس والسكب بمعنى ، والمشرى مكان الشرب ، والعنى مجاوزة الحد فى كل شىء ثم غلب استعماله فى الفساد .

المعنى الجملى

ذكر الله فى هذه الآية نعمة أخرى آتاهها بنى إسرائيل فكفروا بها ، ذاك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفتح الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته .

وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا باللوم على موسى إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر ويصارحونه بالندم على ما فعلوا ، فقد روى أنهم قالوا من لنا بحر الشمس ؟ فظلل عليهم الغمام ، وقالوا من لنا بالطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا من لنا بالماء ؟ فأمر موسى بضرب الحجر .

الإيضاح

(وإذا استسقى موسى لقومه) أى طلب لهم الشقيا من الله تعالى بأن يسعفهم بماء يكفيهم حاجاتهم في هذه الصحراء المحرقة .

(فقلنا اضرب بعصاك الحجر) أى فأجبناه إلى ما طلب وأوحينا إليه أن اضرب الحجر بعصاك ، وقد أمره أن يضرب بعصاه التي ضرب بها البحر حجراً من أحجار الصحراء ، قال الحسن لم يكن حجراً معيناً ، بل أى حجر ضربه انفجر منه الماء ، وهذا أظهر في حجة موسى عليه السلام وأدل على قدرة الله تعالى وقد سماه في سفر الخروج الصخرة .

(فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) أى فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بقدر عدد الأسباط ، فاختص كل منهم بعين حتى لا تقع بينهم الشحنة ، كما يرشد إلى ذلك قوله .

(قد علم كل أناس مشربهم) أى قد صار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ، لا يتعداه إلى مشرب غيره .

قال النطاسى البارع المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل فى كتابه (الإسلام والطب الحديث) ما خلاصته :

إن الله تعالى كان قادراً على تفجير الماء وفلق البحر بلا ضرب عصا ، ولكنه جلت قدرته أراد أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ليسعوا فى الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة .

إلى أنه تعالى خلق الإنسان محدود الإدراك والحواس ، لا يفهم إلا ما كان فى متناول يده ويقع تحت إدراكه وحسه ، فإن رأى شيئاً فوق طاقته اجتهد فى رده إلى ما يعرف ، فإذا لم يستقم له ذلك وقف حائراً مدهوشاً ، ولا سيما إذا تكرر ذلك أمامه ، فكان من لطف الله بعباده أن تظهر المعجزات على يد الأنبياء على طريق التدرج حتى لا تصطدم بها عقول معاصريها دفعة واحدة .

حكى القرآن في معجزات عيسى عليه السلام قوله « أُنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أُنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ »

كان الله قديراً على أن يخلق الطير من الطين ومن غير الطين سواء كان في شكل الطير أم لم يكن ، وكذلك لم يكن هناك من داع للنفخ لأن طريق القدرة « كُنْ فَيَكُونُ » ولكن شاء الله أن تظهر قدرته بطريق التدرج ، لأن الطين إذا كان على شكل الطير يشبه بالطير الحقيقي ولا يكون بينهما فارق إلا بالحياة ، وعملية النفخ تجعل الرأى ينتظر تغييراً في الجسم كما يحدث ذلك في الكرة ونحوها إذا نفخ فيها ، فإذا وجدت الروح في هذا الهيكل الطيني تكون حدة الصدمة قد خفت لأن النفس كانت ترقب ما حدث ، وجميع المقدمات لا دخل لها مطلقاً في وجود الحياة والروح . وكذلك خلق عيسى من نطفة الأم فقط ، مع أن الحيوان في عالمنا لا يخلق إلا من نطفتي الأب والأم ، ونظام الكائنات يجري على سنن واحد إلا حيث يريد الله .

وقد لطف الله بمریم فأراها ملكاً في صورة بشر ، وقال لها سأهب لك غلاماً زكياً ، فأجابته « أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ » فروية الملك والأحوال التي أحاطت به أوجدت عندها بعض الشك في أنها ربما حملت بطريق غير عادي ، وبهذا تهياً احتمالها صدمة الحمل عندما حصل .

وكان الله تعالى جعل النفخ يأخذ مكان نطفة الرجل ، وكان تمثل الملك بصورة البشر كتمثل الطين بصورة الطير ، والنفخ في مريم كالنفخ في الطين ، وكل ذلك تقريب لفهم المعجزة ، وإلا فليس خلق من نطفة مريم والجزء الآخر بإذن الله وقدرته « كُنْ فَيَكُونُ » وسنن الله التي أوجدها في الكون وكفل لها الاستمرار وعدم التبدل ، والتي قام عليها نظام العالم « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » ، قد بدلت في المعجزات بالقدرة الإلهية التي تضع جميع السنن ، وكان المعجزة سنة جديدة .

وإخلاصة — أن المعجزات كلها من صنع الله ، وهى سنة جديدة غير ما نشاهد كل يوم ، فحركة الشمس وطاوعها من المشرق مع عظمها لا تحدث دهشة لعودنا إليها ، ولكن إن طاعت من المغرب دون المشرق كان معجزة وأحدث غرابة ودهشة مع أن الحركتين من صنع الله لا فارق بينهما ، ولكى لا تحدث الصدمة حين حصول المعجزة يهيئ الله الظروف لتحملها ويهيئ النبي لقبولها ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها وقبولها ، فأمر الله موسى بإدخال يده فى جيبه وإخراجها بيضاء تهيئة لمعجزاته الأخرى ، وليس للعقل أن يحكم أن أى المعجزات أعظم من الأخرى لأنه يتكلم عن مجهول هو من صنع الله لا يعرفه ، فلا يمكن الإنسان مهما ارتقى عقله أن يصل إلى صنعها بل هى فوق قدرته ..

أما المخترعات العلمية فهى مبنية على السنن العلمية ، مهما ظهرت مدهشة كالكهرباء والمسرة (التليفون) وغاية ما هناك أن العلماء سخروها لأغراضهم ، فالذى يتكلم فى أوروبا ويسمع صوته فى مصر بوساطة (الراديو) إنما استطاع ذلك لأنه قد استخدم الهواء الذى يحمل أمواج الصوت إلى العالم كله ، وهكذا حال سائر المخترعات ، إنما هى كشف لنا موس إلهى يتكرر دائماً على يد كل إنسان ، لكن المعجزات تجري على طراز آخر ، فهى خلق سنة جديدة فى الكون ، ولا تتكرر إلا بإذن الله ، ولا يعرف الإنسان لها قاعدة ولا يدرك طريقا لصنعها اه .

(كلوا واشربوا من رزق الله) أى وقلنا لهم كلوا مما رزقناكم من المن والسلوى واشربوا مما فجّرنا لكم من الماء من الحجر الصلد ، وقد عبر عن الحال الماضية بالأمر ليستحضر السامع صورة أولئك القوم فى ذهنه مرة أخرى حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب موجه إليهم .

(ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى لا تنشروا فسادكم فى الأرض وتكونوا قدوة لغيركم فيه ، وقد جاء هذا النهى عقب الإنعام عليهم بطيب المأكول والمشرب خيفة أن ينشأ الفساد بزيادة التبسط فيهما ، ولئلا يقابلوا النعم بالكفران .

وقد أراد موسى أن يبحث أصول الشرك التي تغلقت جذورها في نفوس قومه ، ويربأ بهم عن الذل الذي ألقته نفوسهم بتقادم العهد واستعباد المصريين إياهم ، ويعودهم العزة والشمم والإياء بعبادة الله وحده .
وكانوا لا يخطون خطوة إلا اجتروا خطيئة ، وكلما عرض لهم شيء من مشاق السفر برموا بموسى وتحسروا على فراق مصر وتمنوا الرجوع إليها ، واستبطوا وعد الله فطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً غير الله ، وصنعوا عجلاً وعبدوه .

وحينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي وعدوا بها ، اعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين ، كما قصه الله علينا «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا» فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة حتى ينقرض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية ويخرج جيل جديد يتربى على العقائد الحقة وفضائل الأخلاق ، فتاهوا هذه المدة وقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وَإِذْ قُمْتُمْ يَا مُوسَى لَنَ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَالِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِنَضِيبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

شرح المفردات

الصبر : حبس النفس وكفها عن الشيء ، والطعام هو المأكل والساوى وجعلوها طعاماً واحداً لأنهما طعام كل يوم ، والعرب يقول لمن يجعل على مائدته كل يوم ألواناً من

الطعام لا تتغير : إنه يأكل من طعام واحد ، والبقل النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام ، والمراد به هنا ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما ، والقثاء ما تسميه العامة (القثّة) والقوم الحنطة ، وقال جماعة منهم الكسائي إنه الثوم ويرجح هذا ذكر العدس والبصل . والاستبدال طلب شيء بدلا من آخر ، وأصل الأدنى الأقرب ثم استعمل للأخس اللون ، والهبوط الانحدار والنزول ، والمصر البلد العظيم ، وضربت أى أحاطت بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت بهم كما تطبع الطغرى على السكة ، والدلة الذل والهوان ، والمسكنة الفقر ، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعدته عن الحركة ، والمراد بها هنا فقر النفس وشحها ، وباءوا بغضب أى استحقوا الغضب ، يعتدون أى يتعدون حدود الله .

المعنى الجملى

ذكر هنا جرما آخر من جرائم أسلافهم التى تدل على كفرانهم بأنعم الله ، وترشد إلى أنهم دأبوا على إعنات موسى ، وأنهم أكثروا من الطلب فيما استطاع وما لا استطاع حتى يئأس منهم ويرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الدلة ، ومع صادق وعده لهم بأن يمكن لهم الدخول فى الأرض الموعودة ، ويرفع عنهم الخسف الذى كانوا فيه ، ومع كثرة ما شاهدوا من الآيات الدالة على صدقه ، كانوا فى ريب من تحقيق ما قال لهم ويظنون أنه خدعهم حين أخرجهم من مصر وجاء بهم إلى البرية .

وقد بلغ من إعناتهم له أن قالوا « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً » وأن قالوا « لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ » وهم يريدون بذلك أنه لا أمل لك فى بقائنا معك على هذه الحال من التزام طعام واحد ، وربما لم يكن صدر منهم هذا القول عن سأم وكرهية لوحدة الطعام ، بل صدر عن بطر وطلب للخلاص مما يخشون .

الإيضاح

(وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) أى وإذ قال أسلافكم من قبل إعتنا لموسى وبطرا بما هم فيه ، لن نصبر على أن يكون طعامنا الذى لا يتغير أبداً هو اللبن والسلوى .

(فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقشائرها وفومها وعدسها وبصلها) أى سل ربك لأجلنا بدعائك إياه أن يخرج لنا كذا وكذا ، وإنما سألوه أن يدعو لهم لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم ، وقالوا ربك ولم يقولوا ربنا لأنه اختصه بما لم يعط مثله لهم من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة ، فكأنهم قالوا ادع لنا من أحسن إليك بما لم يحسن به إلينا ، فكما أحسن إليك من قبل نرجو أن يحسن إليك بإجابة هذا الدعاء .

(قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟) أى قال لهم موسى على سبيل التوبيخ والاستهجان : أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو اللبن الذى فيه حلاوة تألفها الطباع ، والسلوى الذى هو أطيب لحوم الطير ، وهما غذاء كامل لذيد وليس فيما طلبوه ما يساويهما ؟

(اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم) أمرهم موسى أن ينزلوا من التيه ويسكنوا مصرأ من الأمصار إن كانوا يريدون ما سألوه ، لأن هذه الأرض التى كتب الله عليهم أن يقيموا فيها إلى أجل محدود ليس من شأنها أن تنبت هذه البقول ، والله تعالى لم يقض عليهم بالبقاء فيها إلا لضعف عزائمهم وخور همهم عن أن يغالبا من سواهم من أهل الأمصار ، فهم الذين قضوا على أنفسهم بأكل هذا الطعام الواحد ، ولا سبيل للخلاص مما كرهوا إلا بالإقدام على محاربة من يليهم من سكان الأرض الموعودة ، والله كفيل بنصرهم ، فليطلبوا ما فيه الفوز والفلاح لهم .

(وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أى أن الله عاقبهم على كفران تلك النعم بالدل الذى يهون على النفس قبول الضيم والاستكانة والخضوع فى القول والعمل وتظهر

آثار ذلك فى البدن ، فالذليل يستخذى ويسكن إذا طاف بخياله يد تمتد إليه ،
أو قوة قاهرة تريد أن تستذله وتقهره ، وترى الذل والصغار يبدو فى أوضاع أعضائه
وعلى ظاهر وجهه .

(وباءوا بغضب من الله) أى واستحقوا غضب الله بما حل بهم من البلاء والنقم
فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة .

(ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) أى أن ما حل بهم من ضروب الذلة
والمسكنة واستحقاق الغضب الإلهى ، كان بسبب ما استمراته نفوسهم من الكفر
بآيات الله التى آتاها موسى وهى معجزاته الباهرة التى شاهدوها ، فإن إعنائهم له
وإحراجهم إياه دليل على أنه لا أثر للآيات فى نفوسهم ، فهم لها جاحدون منكرون .

(ويقتلون النبيين بغير الحق) فهم قتلوا أشعيا وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق
أى بغير شبهة عندهم تسوغ هذا القتل ، فإن من يأتى الباطل قد يعتقد أنه حق لشبهة
تعتل له ، وكتابتهم يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عن الأنبياء إلا بحق يوجب ذلك .
وفى قوله: بغير الحق مع أن قتل النبيين لا يكون إلا كذلك ، مزيد تشنيع بهم ،
وتصريح بأنهم ما كانوا مخطئين فى الفهم ولا متأولين للحكم ، بل هم ارتكبوهم عامدين
مخالفين لما شرع الله لهم فى دينهم .

(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى أن كفرهم بآيات الله وجراتهم على النبيين
بالتقتل إنما كانا بسبب عصيانهم وتعديهم حدود دينهم ، فإن للدين هيبة فى النفس
تجعل المتدين به يحذر مخالفة أمره ، حتى إذا تعدى حدوده مرة ضعف ذلك السلطان
الدينى فى نفسه ، وكما عاد إلى المخالفة كان ضعفه أشد ، إلى أن تصير المخالفة طبعاً
وعادة ، وكأنه ينسى حدود الدين ورسومه ، ولا يصبح للدين ذلك الأثر العميق الذى
كان متغلغلاً فى قرارة نفسه .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

المعنى الجملى

بعد أن أنحى باللائمة على اليهود فى الآيات السابقة ، وبين ما حاق بهم من
الذل والسكنة ، وما نالهم من غضب الله جزاء ما اجتروا من السيئات من كفر
بآيات الله وقتل للنبيين وعصيان لأوامر الدين وترك لحدوده ومخالفة لشرائعه ، ذكر
هنا حال المستمسكين بحبل الدين المتين من كل أمة وكل شعب ممن اهتدى بهدى
نبي سابق وانتسب إلى شريعة من الشرائع الماضية وصدق فى الإيمان بالله واليوم
الآخر ، وسطع على قلبه نور اليقين ، وأرشد إلى أنهم الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا) أى إن المصدقين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أتاهم به
من الحق من عند الله .

(والذين هادوا) أى دخلوا فى اليهودية ، يقال هاد القوم يهودون هوداً وهادة :
صاروا يهوداً .

(والنصارى) واحدهم نصران وسموا بذلك من أجل أن مريم نزلت بعيسى
فى قرية يقال لها الناصرة .

(والصابئين) هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء .

(من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً) أى من تحلى منهم بالإيمان الخالص
بالله والبعث والنشور وعمل صالح الأعمال .

(فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى فلهم ثواب عملهم

الصالح عند ربهم ولا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وزينتها إذا عاينوا ما أعد الله لهم من نعيم مقيم عنده .

والخلاصة — أن المؤمن إذا ثبت على إيمانه ولم يبدله ، واليهودى والنصرانى والصائبى إذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به وباليوم الآخر وعملوا صالحاً ولم يغيروا حتى ماتوا على ذلك ، فلهم ثواب عملهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يعترهم حزن ، فمدار الفلاح هو الإيمان الصحيح الذى له سلطان على النفوس والعمل الصالح الذى به تتم سعادتها ويكتب لها به الفوز فى الدنيا والآخرة ، قال الإمام الغزالى : إن الناس فى شأن بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة :

(١) من لم يعلم بها بالمرة ، وهذا ناجح حتماً .

(٢) من بلغت الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها إهمالاً أو عناداً واستكباراً وهذا مؤاخذ حتماً .

(٣) صنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعتة ووصفه ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذا با مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذا با يقال له المققع تحدى بالنبوة كاذبا ، فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول ، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه ، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب اهـ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَآذِكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

شرح المفردات

الطور : هو الجبل المعروف الذى ناجى فيه الله موسى عليه السلام ، ورفعهُ قد فسرهُ فى سورة الأعراف فقال : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ » التَّقَى الهز والزعزعة والجذب ، فالتقَى فى الجبل كان بما يشبه الزلزال فيه ، والخسران ذهاب رأس المال أو نقصه .

المعنى الجملى

ذكر الله فى هاتين الآيتين جناية أخرى حدثت من أسلاف الخطابين وقت التنزيل ، ذاك أنه بعد أن أخذ الله عليهم المواثيق التى ذكرها بقوله : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » الخ قبلوها وأراهم من الآيات ما فيه منقع لهم ، رفع الجبل فوقهم كالظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم ، وطلب إليهم التمسك بالكتاب والعمل بما فيه بالجد والنشاط ، كي يعدوا أنفسهم لتقوى الله ورضوانه ، ثم كان منهم أن أعرضوا عن ذلك وانصرفوا عن طاعته ، ولولا لطف الله بهم لاستحقوا العقاب فى الدنيا وخسروا سعادة الآخرة وهى خير ثواب وخير أمل ، لكن وقفهم الله بعد ذلك فتابوا ورحمهم فقبل توبتهم .

الإيضاح

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ) أى اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما فى التوراة وقبولهم ذلك .
(ورفعنا فوقكم الطور) وأريناهم هذه الآية بعد أخذ الميثاق لكى يأخذوا ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد ، لأن رؤية ذلك مما يقوى الإيمان ويحرك الشعور والوجدان .

(خذوا ما آتيناكم بقوة) أى وقلنا لهم خذوا الكتاب وهو التوراة بمجد وعزيمة ومواظبة على العمل بما فيه .

(واذكروا ما فيه) أى اذكروا ما فيه ولا تنسوا تدبر معانيه واعملوا بما فيه من الأحكام ، فإن العمل هو الذى يجعل العلم راسخاً فى النفس مستقراً عندها ، كما أثر عن على أنه قال : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل .

فحال التارك للشرعية المضيع لأحكامها أشبه بحال الجاحد المعاند لها وهو جدير بأن يحشره الله يوم القيامة أعمى عن طريق الفلاح والسعادة حتى إذا لقي ربه « قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى » فالجاحد للشرعية والناسى لها المضيع لأحكامها لا يكون لها أثر فى نفوسهما لا ظاهراً ولا باطناً .

ومن ذلك تعلم أن الحجة قائمة على من ليس لهم حظ من القرآن إلا التغنى بالفاظه وأفندتهم هواء من عظاته ، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به ، فما المقصد من الكتب الإلهية إلا العمل بما فيها لا تلاوتها باللسان وترتيلها بالألغام ، فإن ذلك نبذ لها ، قال الغزالي : وما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتاباً إلى أحد أمرائه وأمره أن يبنى له قصرًا فى ناحية من مملكته ، فلم يكن حظ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن يبنى القصر ، أفلا يستحق هذا الأمير بعدئذ العقاب من الملك الذى أرسل به إليه ؟ ثم ذكر لهم فائدة ذكره فقال :

(لعلكم تتقون) أى ليعد نفوسكم لتقوى الله عز وجل : ذاك أن المواظبة على العمل تطبع فى النفس سجية المراقبة لله ، وبها تصير تقية تقية من أدران الرذائل راضية مرضية عند ربها « وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » .

(ثم توليت من بعد ذلك) أى ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة بعد أن أخذ عليكم الميثاق وأراكم من الآيات ما فيه عبرة لمن أذكر .

(فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) أى ولولا لطف الله بكم وإيماله إياكم إذ لم يعاملكم بما تستحقون ، لكنتم من الهالكين بالانهماك فى المعاصى .

والخلاصة — أنكم بتوليكم استحققت العقاب ، ولكن فضل الله عليكم ورحمته أبعد عنكم ، ولولا ذلك لخسرتم سعادتي الدنيا والآخرة .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

شرح المفردات

الاعتداء : تجاوز الحد في كل شيء ، وواحد القردة قرد ، وواحد الخاسئين خاسئ وهو المبعد المطرود من رحمة الله ، والنكال ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر غيره ، والموعظة ما يليق من الكلام لاستشعار الخوف من الله بذكر ثوابه وعقابه .

المعنى الجملى

في هاتين الآيتين وما يتلوها بعد — تعداد لنكث اليهود والمواثيق التي أخذت على بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام وحل بهم جزاء ما عملوا من مسخهم قردة وخنازير ، فأجدر بسلطانهم الذين كانوا في عصر التنزيل تتدخل دورهم دور الأنصار ألا يجحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وألا يصروا على كفرهم وعدم التصديق بما جاء به خوفاً من أن يحل بهم ما حل بأسلافهم مما لا قبل لهم به من غضب الله .

فمن عهدهم التي نكثوها أنهم اعتدوا يوم السبت ، ذاك أن موسى عليه السلام حظر عليهم العمل في هذا اليوم وفرض عليهم فيه طاعة ربهم والاجتهاد في الأعمال الدينية ، إحياء لسلطان الدين في نفوسهم ، وإضعافاً لشركهم في التكالب على جمع حطام الدنيا وادخاره ، وأباح لهم العمل في ستة الأيام الأخرى .

لكنهم عصوا أمره وتجاوزوا حدود الدين واعتدوا في السبت فجازاهم الله بأشد أنواع الجزاء ، فخرج بهم من محيط النوع الإنسانى وأنزلهم أسفل الدرجات فجعلهم يرتعون في مراتع البهائم ، وليتهم كانوا في خيارها ، بل جعلهم في أخس أنواعها ، فهم كالقردة في نزواتها والخنزير في شهواتها مبعدين من الفضائل الإنسانية يأتون المنكرات جهاراً عياناً بلا خجل ولا حياء حتى احتقرهم كرام الناس ولم يروهم أهلاً لمعاشرة ولا معاملة .

الإيضاح

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) أى لقد عرقتهم نبأ الذين تجاوزوا منكم الحد الذى رسمه لهم الكتاب وركبوا ما نهىهم عنه من ترك العمل الدينى والتفرغ للعمل الأخرى يوم السبت ، وسيأتى إيضاح هذا في سورة الأعراف .

(فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى فصيرناهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : مامسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم ، فلا تقبل وعظاً ولا تعى زجراً .

وقد مثل الله حالهم بحال القردة كما مثّلوا بالحمار في قوله : « مَثَلُ الَّذِينَ هُمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا (يعملوا بما فيها) كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً » .

وذهب جمهور العلماء إلى أنهم مسخت صورهم فصارت صور القردة ، وروى أن المسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ، ونظير الآية قوله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » الطاغوت : الشيطان .

قال الأستاذ الإمام : والآية ليست نصاً في رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل ، ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسح كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان ، إذ ليس ذلك من سنته في خلقه ،

وإنما العبرة الكبرى في العلم بأن من سنن الله في الذين خلوا من قبل — أن من يفسق عن أمره ويتنكب الصراط الذي شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان ويلحقه بعجاوات الحيوان ، وسنة الله واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية اه . وفي هذا تأييد لرأى مجاهد وتفضيل له على رأى الجمهور ، قال ابن كثير : والصحيح أن المسخ معنوى كما قال مجاهد لا صورى كما قال غيره .

(فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) أى فجعلنا هذه العقوبة عبرة ينكل من يعلم بها أى يمتنع من الاعتداء على حدود الله ، سواء منهم من وقعت في زمانه أو من بعدهم إلى يوم القيامة .

وهى أيضا موعظة للمتقين ، لأن المتقى يتعظ بها ويتباعد عن الحدود التى يخشى اعتدائها كما قال : « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا » ويعظ بها غيره ، ولن يتم الاتعاظ بها وتكون عقوبة للمتقدم والمتأخر إلا إذا جرت على سنن الله المطردة في تهذيب النفوس وتربية الشعوب ، فرأى مجاهد أخرى بالقبول ولا سيما أنه ليس في الآية نص على كون المسخ فى الصور والأجساد .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِىَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهُا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْمُرُ النَّازِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِىَ ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ

وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لِشَيْءٍ فِيهَا، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا
وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ
مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ
الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

شرح المفردات

البقرة اسم الأثني ، والثور اسم الذكر ، والهزؤ السخرية ، والجهل هنا فعل
ما لا ينبغي أن يفعل ، وقد يطلق على اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه ، والفارض
المسنة التي انقطعت ولادتها ، والبكر الصغيرة التي لم تحمل بعد ، والعوان النصف
في السن من النساء والبهائم ، والذلول الرئى الذى زالت صعوبته ، يقال دابة ذلول
بيئة الذل (بالكسر) ورجل ذلول بين الذل (بالضم) والإثارة قلب الأرض للزراعة ،
والحرث الأرض الميأة للزرع ، والمسلة التي سلمت من العيوب ، والشية العلامة
أى لا لون فيها يخالف لونها من وشى الثوب يشبه إذا زينه بخطوط مختلفة الألوان ،
والآيات هى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور الغريبة ، ويقال عقلت نفسى عن
كذا أى منعتها منه .

المعنى الجملى

فى هذا القصص بيان نوع آخر من مساوئهم نعتبر به ونتمعظ ، وفيه من
وجوه العبرة :

(١) أن التنطع فى الدين والإلخاف فى السؤال مما يقضى التشديد فى الأحكام ،
ومن ثم نهينا عن ذلك بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ
لَكُمْ تَسْؤُكُمْ » وبما جاء فى صحيح الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم « وكره
لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » .

(٢) أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان ، لأنها من جنس ما عبده وهو العجل ليهون عندهم ما كانوا يرون من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان في نفوسهم من حب عبادته .

(٣) استهزأؤهم بأوامر الأنبياء .

(٤) أن يحيا القتل بقتل حي فيكون أظهر لقدرته تعالى في اختراع الأشياء من أصدادها .

وأول القصة معنى قوله : « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا » الخ إذ هي المخالفة التي صدرت منهم ، ثم ذكر المنة في الخلاص منها في قوله : « وَقَتْلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » الخ وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها وهي ذبح البقرة .

وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب في ذبح البقرة والمفاجأة بحكاية ما كان من الجدل بين موسى وقومه ، فإن الحكمة في أمر الله أمة بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها .

والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين في تنسيق الكلام على حسب الوقائع ، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذي يستثير اللب ويأخذ بمجامع القلب ويستوحى شغف السامع بما يدور حوله الحديث .

الإيضاح

(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) روى في سبب الذبح أنه كان في بني إسرائيل شيخ موسى قتله بنو عمه طمعاً في ميراثه وحملوه إلى قرية أخرى وألقوه بفنائها ثم جاءوا يطالبون بديته ، وادعوا على ناس منهم أنهم قتلوه ، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه الأمر ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله .

(قالوا أتتخذنا هزواً ؟) أى قالوا : أجمعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا ؟ نسألك

عن أمر القتل فتأمرنا بذبح بقرة ، وهذا غاية في الغرابة وبعيد كل البعد عما نريد ، وقد كان الواجب عليهم أن يمتثلوا أمره ويقابلوه بالتجلة والاحترام ثم ينتظروا ما يحدث بعد ، فهذا القول منهم دليل على السفه وخفة الأحلام وجفاء الطبع والجهل بقدره الله تعالى .

(قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أى أتجىء إلى الله من الهزؤ والسخرية بالناس ، إذ هو في مقام تبليغ أحكام الله دليل السفه والجهل .

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) أى سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها ، وقد سألوا عن صفتها لما قرع أسماعهم بما لم يعهده ، فإن بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا موضع العجب والغرابة والحيرة والدهشة ، ومن ثم أكثروا من الأسئلة فأجيبوا بأجوبة فيها تغليظ عليهم .

(قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) أى ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة بل هي وسط بينهما .

(فافعلوا ما تؤمرون) أى فامتثلوا الأمر ولا تتوانوا في نفاذه ، ولا يخفى ما في هذا من التحذير والتنبية على ترك التعنت ، وكان يجب عليهم الاكتفاء به والمبادرة إلى الامتثال ، لكنهم أبوا إلا تنطعا واستقصاء فأعادوا الطاب .

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) سألوا عن لونها فأجيبوا بما فيه الكفاية في بيان مميزاتها لكنهم ما قنعوا بهذا بل زادوا في الألحاف وإعادة السؤال مرة أخرى .

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) هذا سؤال لطلب إيضاح زيادة على ما تقدم ككونها عاملة أو سائمة ، وإظهار لأنه لم يحصل لهم تمام البيان . ثم ذكروا السبب في إعادة السؤال .

(إن البقر تشابه علينا) أى لأن وجوه البقر تتشابه ، وفي الحديث أنه ذكر فتنا كقطع الليل تأتي كوجوه البقر — أى يشبه بعضها بعضا .

(وإنا إن شاء الله لَمُهتدون) إلى البقرة المأمور بذبحها ، أو لما خفي من أمر القاتل ، أو إلى الحكمة التي من أجلها أمرنا ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لو لم يستثنوا ويقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم آخر الأبد » .

(قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها) أى إنها بقرة لم تذلل بالعمل فى الحرثة والسقى ، وهى سالمة من العيوب ، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقمة .

(قالوا الآن جئت بالحق) أى أنك الآن أظهرت حقيقة ما أمرنا به بعد ذكر هذه المميزات التي ذكرتها لنا .

(فذبحوها) أى فطلبوا البقرة الحاوية لكل الأوصاف السالفة ، حتى وجدوها فذبحوها .

(وما كادوا يفعلون) وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم وانقطع ما كان من تنقطعهم وتعنتهم .

والخلاصة — فذبحوها بعد توقف وبطء ، روى ابن جرير عن ابن عباس ، لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

(وإذ قتلتم نفساً) هذا مؤخر لفظاً مقدم معنى لأنه أول القصة — أى وإذ قتلتم

نفساً وأتيتم موسى وسألتوه أن يدعوا الله تعالى ، فقال موسى إن الله يأمركم إلى آخر

الآيات ولم يقدم لفظاً لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل ، وأسند القتل

إلى اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم لأنهم سلائل أولئك ، وهم راضون بفعلهم ،

كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد ، لأن الأمة فى مجموعها كالشخص الواحد ،

فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد كما قال أبو الطيب :

وجرم جـره سفهاء قوم فـل بغير جـارمه العقاب

(فادارأتم فيها) أصل ادارأتم تدارأتم من الدرء وهو الدفع أى تدافعتم وتخاصمتم

فى شأنها ، وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه .

(والله مخرج ما كنتم تكتمون) أى والله مظهر لا محالة ما كنتم وستروا من أمر القتل ، فمن كان يعرف أمره يكتمه لهُوى في نفسه وأغراض تبعد عنه الضغن والعداوة .
(قتلنا ضربه ببعضها) أى اضربوا المقتول ببعض البقرة ، أى بعض كان وقيل بلسانها ، وقيل بفخذها .

(كذلك يحيى الله الموتى) أى فضر به فحي ، وقلنا كذلك يحيى الله الموتى ، أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة ، وقد روى أنهم لما ضربه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دما ، وقال قتلنى فلان وفلان وهما ابنا عمه ، ثم سقط ميتا فأخذوا وقتلوا .

وإنما أمرهم بالضرب ولم يضرب بنفسه نفيا للتهمة كيلا ينسب إلى السحر والشعوذة .

(ويرىكم آياته) وهى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضوميت ، وإخبار الميت بقاتله ، مما ترتب عليه الفضل فى الخصومة وإزالة أسباب الفتن والعداوة .

(لعلمكم تعقلون) أى لعلمكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها ، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها ، وتطيعون الله فيما يأمركم به .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ،
وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ
مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (٧٤)

شرح المفردات

القسوة : اليبس والصلابة ، يتفجر يتفتح ويتشقق بكثرة وسعة ، ويهبط يتردى
وينزل ، والخشية : الخوف .

المعنى الجملى

وصف الله حال بنى إسرائيل بعد أن رأوا من آياته التى آتاهها موسى عليه السلام ما رأوا ، كأنفجار الماء ورفع الجبل ومسحهم قرده وخنازير وإحياء القتيل إلى نحو ذلك — وصفهم بقساوة القلوب وضعف الوازع الدينى فيها حتى أصبحت كالصم الضلاد ، بل أشد منها قسوة ، فلا أثر فيها لعاطفة عبرة ولا شعور لها بعظة ، فقد فقدت التأثر والانفعال ، وكأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى دركات الجحيم كالحجارة ، بل نزلوا إلى ما دونها ، فإن من الحجارة ما يتأثر فيشققه الماء العذب الزلال الذى يسيل أنهارا وجداول وعبونا يستقى منها الإنسان والحيوان ويحيى الأرض وينفع النبات ، ومنها ما ينحط من أعلى الجبل ، أو من أثنائه بجحاث من حوادث الكون الهائلة كالبراكين والزلازل والصواعق التى تدك الصخور وتدمر الحصون ..

أما هذه القلوب فلم تتأثر بالعظات والعبر ولم تستطع تلك النذر أن تشقيها وتنفذ إلى أعماق الوجدان فيها ، وصارت لا تهزها الآيات الكونية الرهيبة التى أظهرها الله على يد نبيه، فقد كانوا مع كل ما يروونه لا يزدادون إلا عنادا، وعتوا فى الأرض وفسادا..

الإيضاح

(ثم قسمت قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) أى أن قلوبكم صلبت بعد إذ رأيتم الحق وعرفتموه ، واستكبرت عن الخضوع والإذعان لأمر الدين ، فهي كالحجارة صلبة وببسا بل أشد منها .

والسرى تشبيه القلوب بالحجارة دون غيرها من نحو الحديد والصخر ، أن كلا منهما يسيل بالإحماء بالنار بخلاف الحجر .

(وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار . وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله) أى أن هذه الحجارة تارة تتأثر تأثرا يعود بمنفعة

عظيمة على الناس والحيوان والزرع بخروج الأنهار منها ، وأخرى تتأثر تأثرا ضعيفا يترتب عليه منفعة قليلة فتنبع منه العيون والآبار ، وحينئذ تتأثر بالتردى والسقوط بلا منفعة للناس ، وقلوب هؤلاء لا تتأثر بحال ، فلا تجدى فيها الحكم والمواعظ التى من شأنها أن تنفذ فى الوجدان وتصل إلى الجنان .

(وما الله بغافل عما تعملون) أى أن الله لهم بالمرصاد ، فهو حافظ لأعمالهم ومحصىها عليهم ثم يجازيهم بها ، وهو يرهبهم بصنوف النقم إذا لم شجى فيهم ضروب النعم — ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا
الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ
بِمَا قَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)
أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ
لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا
بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

المعنى الجملى

كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه شديدى الحرص على دخول اليهود فى ساحة الدين الجديد طامعين فى انضوائهم تحت لوائه ، لأن دينهم أقرب الأديان إلى دينهم فى تعاليمه ومبادئه وأغراضه ، فهم يشركونهم فى الاعتقاد بالتوحيد والتصديق بالبعث والنشور ، وكتابهم مصدق لما معهم .

فقص الله في هذه الآيات على المؤمنين من أنبيائهم ما أزال به أطاعهم وأياسهم من إيمانهم بذكر ما كان يحدث من أسلافهم مع نبيهم موسى صلوات الله عليه بين أن وآخر من تمرد وعناد وجحود وإنكار ، فتأتيتهم الآية تلو الآية ويحل بهم من العقاب ما هم له أهل فيطلبون من موسى أن يدعو الله ليرفع عنهم العذاب ويستجيبيوا لدعوته ، حتى إذا ما رفعه عنهم عادوا سيرتهم الأولى معاندين جاحدين ، وقد بلغ من عنادهم أن قالوا له : لا نصدق بك ولا نطيع أوامرك حتى نسمع كلام الله ومناجاته إليك ، فاختار موسى بأمر الله سبعين رجلا منهم لسماع الوحى ومصاحبته إلى حيث ينادى ربه ، فسمعوا كلامه بطريق نحن لا نعرفها ولا ندرك كنهها ، واستيقنوا مناجاته ربه وسمعوا أوامره ونواهيه — ثم كان منهم أن حرفوا كلام الله الذى حضروا وحيه وصرفوه عن وجهه بالتأويل والتحريف ، وهذا مثبت عندهم فى التوراة وهى كتابهم المقدس .

فلا عجب إذاً فى إعراض الحاضرين عن هدى الله الذى جئت به ، فالمعارضة والاستكبار دأبهم ورثوها من أسلافهم الذين كانوا يحرفون ويبدلون ويكاثرون وهم يشاهدون الدلائل الحسية تترى بين يدى موسى عليه السلام ، فأخبر بهم أن يجحدوا ديننا دلالة عقلية وآيته الكبرى معنوية وهى القرآن الكريم بما اشتمل عليه من تشريع فيه سهولة وتيسير للناس ، وفيه فصاحة أعجزت فصحاء العرب عن محاكاته ، فلبثوا إلى السيف والسنان بعد أن أعجزتهم الحجة والبرهان ، ثم ذكر حالاً أخرى لهم هى أن علماءهم وقوموا فى الخيرة والاضطراب حين مجئ الدين الجديد ، أيتبعونه ولكن ربما خذله أتباعه ، أم يحتفظون بالتقديم ولكن ربما كسدت سوقه وقل أنصاره ، وقالوا من الخير كل الخير أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الحزب الآخر إذا عرف ما كان منا حتى يتبين اتجاه ربح السفينة .

أما عامتهم فلا علم لهم بشيء من الكتاب ، وما عندهم من الدين إلا ظنون. أخذوها عن أسلافهم دون أن يكون لديهم دليل على صحتها أو فسادها ، ومثل هذا

لا يسمى علما ، إنما العلم ما كان عن حجة وبرهان ، ولا يقبل الله إلا العلم الصحيح في عقائد الأديان .

الإيضاح

(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) الطمع تعلق النفس بإدراك ما تحب تعلقا قويا ، وهو أشد من الرجاء ، أن يؤمنوا لكم أى أن يؤمنوا لأجل دعوتكم إليهم ، والفريق الجماعة لا واحده من لفظه ، من بعد ما عقلوه أى ضبطوه وفهموه ولم تشبهه عليهم حسنة ، وفى ذلك إيماء إلى تعمدهم وسوء قصدهم ، وإبطال لما عساه أن يعتذر لهم به من سوء الفهم ، وقوله وهم يعلمون أى كانوا فى حال العلم بالصواب لا ناسين ولا ذاهلين ، وفى هذين الوصفين نعى عليهم وتسجيل لتعمق الفسوق والعصيان فيهم .

وحاصل المعنى — استبعاد الطمع فى إيمان هؤلاء ، فقد كان لهم سلف من الأحبار والرؤساء على تلك الحال الشنيعة من تحريف لكلام الله بعد سماعه وتأويله على حسب ما يشاءون ، وليس هؤلاء بأحسن حالا من أولئك .

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى إذا لقي اليهود أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قال المنافقون منهم : إنا آمنا كما يمانكم وإن محمدا هو الرسول للبشر به .

(وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟) قوله فتح الله عليكم أى بينه لكم خاصة فى التوراة من الأحكام والبشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والتعبير عنه بالفتح للإشارة إلى أنه سر مكتوم وباب مغلق لا يقف عليه أحد ، وقوله : «لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ» أى ليحتجوا عليكم به فيقطعوكم بالحجة ويبكتوكم ، وقوله : «عِنْدَ رَبِّكُمْ» أى فى حكمه وكتابه ، وقوله : «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى ألا تعقلون هذا الخطأ الفاحش وأن ذلك يكون حجة عليكم .

والغنى — وإذا اجتمع بعض ممن لم ينافق إلى بعض ممن نافق قال الأولون

عائدين على الآخرين من المنافقين وعاذلين لهم على الإفشاء إلى المؤمنين بما بينت لهم التوراة من الإيمان بالنبي الذي يجيء مصدقا لما معهم كي يقيموا عليهم الحجة من كتاب ربهم ، من قبل أن ما حدثوا به موافق لما في القرآن ، ولولا أن محمدا نبي لما علم بهذا الذي حكاه عنهم .

(أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى يقول اللاعنون ما قالوا ويكتمون من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ما كتموا ويحرفون من كتابهم ما حرفوا ؟ ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد ، وما يعلنون من إظهار إيمان وود ، فإن كانوا يؤمنون بأن الله محيط بكل شيء علما ، فلم لا يخشون بأسه ، وهو المطلع على الظاهر والعالم بما يحول في الضمائر ، والجازي على ذلك بالخزي في الدنيا والعذاب الموعود في الآخرة ؟

(ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) الأميون واحد هم أمى وهو من لا يقرأ ولا يكتب أى أنه كما ولدته أمه ، ومنه الحديث « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ، والأمانى واحدها أمنية وهى التلاوة كما قال كعب ابن زهير :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حِمام القادر

أى أنه لاحظ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظ من غير فهم للمعنى ولا تدبر له بحيث يظهر أثرها في العمل ، وهذا على حد قوله : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » .

(وإن هم إلا يظنون) أى وما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم المبني على البرهان القاطع الذى لا شك فيه .

وقد كانوا أكثر الناس جدلا ومراء في الحق وإن كان بيننا ظاهرا وأشدهم كذبا وغرورا وأكلا لأموال غيرهم بالباطل من ربا فاحش وغش وتدليس ، وهم مع ذلك يعتقدون أنهم أفضل الناس كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان .

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) الويل كلمة يقولها من يقع في هَلَكَة ، وهى دعاء على النفس بالعذاب كما جاء فى قوله تعالى حكاية عن الكافرين « يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ » .

أى هلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون لعوامهم هذا الحرف من عند الله فى التوراة .

(ليشتروا به ثمناً قليلاً) أى ليأخذوا لأنفسهم فى مقابلة هذا الحرف ثمنًا وهى الرُّشَى التى كانوا يأخذونها جزاء ما صنعوا ، ووصف الثمن بالقلّة وقد يكون كثيرًا ، لأن كل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل ، لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها ، وقد روى أن الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين خافوا أن تذهب رياستهم بإبقاء صفة النبى فى التوراة فغيروها .

ثم كرر الوعيد فقال :

(فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) أى فلهم عقوبة عظيمة من أجل كتابتهم هذا الحرف ، وويل لهم من أخذهم الرشوة وفعلهم المعاصى . وقد جنى اليهود الكاتبون ثلاث جنائيات : تغيير صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، والافتراء على الله ، وأخذ الرشوة ، فهددوا على كل جنائية بالويل والثبور .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده : من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه اليهود من قبلُ فلينظر فيما بين يديه فإنه يراها واضحة جليلة ، يرى كتباً ألقت فى عقائد الدين وأحكامه حرقت فيها مقاصده وحولت إلى ما يفر الناس وتمنيهم ويفسد عليهم دينهم ، ويقولون هى من عند الله وما هى من عند الله ، وإنما هى صادرة عن النظر فى كتاب الله والاهتداء به — ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين : رجل مارق من الدين يعتمد إفساده ويتوخى إضلال أهله ، فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الصلاح ، يخادع الناس بذلك ليقبلوا ما يكتب ويقول ، ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيل ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه اه .

وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتُخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتِمَّلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

شرح المفردات

المس والممس بمعنى ، والمراد بالنار نار الآخرة ، والمعدودة المحصورة القليلة ، والعرب تقول : شيء معدود ؛ أى قليل ، وغير معدود أى كثير ، والعهد الوعى وخبر الله الصادق ، بلى لفظ يجاب به بعد كلام مننى سابق ومعناه إبطاله وإنكاره ، والكسب جلب النفع ، فاستعماله فى السيئة من باب التهكم ، والسيئة الفاحشة الموجبة للنار ، والإحاطة الشمول كأن السيئة تحصر صاحبها وتأخذ جوانب قلبه .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات ضرباً من ضروب غرورهم واصلفهم وادعائهم أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهو لا يعذبهم دوماً بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبيب حبيبه وقتاً قصيراً ثم يرضى عنهم .

الإيضاح

(وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام ، لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة ، فمن لم تدركه النجاة ويلحقه الفوز والسعادة يمكث فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم ، وقيل إنها تمسهم أربعين يوماً ، وهى المدة التى عبدوا فيها العجل .

(قل أنخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده) أى أعهد إليكم ربكم بذلك ووعدكم به وعداً حقاً ، إن كان كما تقولون فلن يخلف الله وعده .

(أم تقولون على الله ما لا تعلمون) أى أم أنتم تقولون على الله شيئاً لا علم لكم به ، فإن مثله لا يكون إلا بوحى يبلغه الرسل عنه ، وبدون هذا يكون افتياتاً على الله وجراءة عليه ، لأنه قول بلا علم فهو كفر صراح .

وخلاصة هذا — أن مثل ذلك القول لا يصدر إلا عن أحد أمرين : إما اتخاذ عهد من الله ، وإما افتراء وتقوّل عليه ، وإذا كان اتخاذ العهد لم يحصل فأنتم كاذبون فى دعواكم مفترتون بأنسابكم حين تدعون أنكم أبناء الله وأحبّاءه .

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ليس الأمر كما ذكرتم بل تمسككم النار وتمس غيركم دهرًا طويلاً ، فكل من أحاطت به خطيئاته وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه واسترسل فى شهواته . وأصبح سجين آثامه فجزاؤه النار خالدًا فيها أبداً ، لما اقترف من أسبابها بانغماسه فى الشهوات التى استوجبت ذلك العقاب .

والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله ، وصاحبه مخلد فى النار ، وبعض العلماء حمل السيئة على معناها العام وقال إن الخلود هنا المكث الطويل بمقدار ما يشاء الله ، فالعاصى مرتكب الكبائر يمكث فيها ردحاً من الزمان ثم يخرج منها متى أراد الله تعالى وإذا أحدث المرء لكل سيئة توبة نصوحا وإقلاعا صحيحا عن الذنب فلا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات ، روى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى ذكر الله فى القرآن « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى وأما الذين صدقوا الله ورسوله وآمنوا باليوم الآخر وعملوا صالح الأعمال فأدوا الواجبات

وانتهوا عن المعاصي فأولئك جديرون بدخول الجنة جزاء وفاقا على إخبارهم لربهم وإنا بتهم إليه وإخلاصهم له في السر والعلن .

وفي هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معاً كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسفيان بن عبد الله الثقفي وقد قال له يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : قل آمنت بالله ثم استقم رواه مسلم .

وقد جرت سنة الله في القرآن أن يشفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة وإرشاد العباد من الترغيب مرة والترهيب أخرى ، والتبشير طوراً والإنذار طوراً آخر ، إذ باللطف والقهر يرقى الإنسان إلى درجة الكمال ، ويفوز برضوان الله وحسن توفيقه « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣)

شرح المفردات

الميثاق العهد الشديد المؤكد ، وهذا العهد أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم ، واليتيم من الحيوان من لا أم له ومن الإنسان من لا أب له ، وأصل المادة يفيد الانفراد ومنه الدرة اليتيمة لانفرادها في العقد ، والمساكين هم العاجز عن الكسب .

المعنى الجملي

ذكر سبحانه في الآيات السابقة بني إسرائيل الذين كانوا في عصر التنزيل بما أنعم الله به على آبائهم من النعم كفضليلهم على العالمين ، وإنجائهم من الفرق

وإنزال المن والسوى عليهم ، ثم ما كان يحصل إثر كل نعمة من مخالفة فلول عقوبة فتوبة من الذنب بعد ذلك .

وفى هذه الآية تذكير بأهم ما أمر به أسلافهم من عبادات ومعاملات ، ثم ما كان منهم من إهمالها وترك اتباعها ، وسيعاد الكلام فيها أيضا بعد ، لأن المقام يحتاج إلى الإطناب والبسط ، ولأن القلوب مستحجرة لا ينفذ شعاع الحق في أكفانها ، وأذهانهم كليلية فهي في حاجة إلى التكرار بين آن وآخر ، لعلها ترجع إلى رشدها . وقد خوطب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمانهم ، لأن قبائح أسلافهم تمنعهم من الهدى والرشاد قال : « إذا طاب أصل المرء طابت فروعه » .

الإيضاح

(وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل) علمت فيما سلف أن العهد قسمان عهد خلقة وفطرة ، وعهد نبوة ورسالة ، والمراد هنا عهد الرسالة الذى أخذه عليهم على لسان أنبيائهم أى واذكر أيها الرسول حين أخذنا عليهم الميثاق ثم بين هذا الميثاق فقال : (لا تعبدون إلا الله) يقال أخذت عليك عهدا تفعل كذا ، وأن تفعل كذا ، ويرد مثل هذا الخبر فى كلامهم متضمنا معنى النهى أو الأمر كما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كيت وكيت ، على معنى اذهب وقل له ، وفى هذا الأسلوب مبالغة وتوكيد كأن المخاطب سيمثل النهى حتما ويسارع إلى الترك فيخبر الناهى به ، أى لا تعبدوا إلا الله .

وقد نهوا عن عبادتهم غير الله مع أنهم كانوا يعبدون الله خوفا من أن يشركوأ به سواه من ملك أو بشر أو صنم بدعاء أو غيره من أنواع العبادات .

ودين الله على السنة الرسل جميعا فيه الحث على عبادة الله وعدم الشرك بعبادة أحد سواه « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » فالتوحيد عماده الأمران معاً .

(وبالوالدين إحساناً) أى أحسنوا إليهما ، بأن تعطفوا عليهما وترعوهما حق الرعاية وتنزلوا عند أمرهما فيما لا يخالف أوامر الله ، وقد جاء في التوراة أن من يسب والديه يقتل .

والحكمة فى البر بهما أنهما قد بذلا للولد وهو صغير كل عناية وعطف بتربيته والقيام بشئونه حين كان عاجزاً ضعيفاً لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ، مع الشفقة التى لا مزيد عليها ، أفلا يجب عليه بعدئذ مكافأتهما جزاء وفاقا لما صنعا ؟ « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ولحب الوالدين لولدهما أسباب :

(١) الحنان القطرى الذى أودعه الله فيهما إتماماً لحكمته فى بقاء الأنواع إلى ما شاء الله .

(٢) التفاخر بالأبناء كما قال ابن الرومى :

وكم أب قد علا بآبى ذرا شرف كما علت برسول الله عدنان

(٣) الأمل فى الاستفادة منهما مالا وعونا على المعيشة .

وهذا الحب لا يحتاج إلى ما يقويه ويوثق صلته ، ومن ثم ترك القرآن النص عليه .

(وذى القربى) لأن الإحسان إليهم مما يقوى الروابط بينهم .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

فما الأمة إلا مجموعة الأسر والبيوت ، فصلاحيها بصلاحيها وفسادها بفسادها ،

ومن لا بيت له لا أمة له ، ومن قطع لحة النسب فكيف يصل ما دونها وكيف

يكون جزءا من الأمة يسره ما يسرها ويؤله ما يؤله ، ويرى فى منفعتها منفعته ،

وفى مضرتها مضرته .

ونظام الفطرة قاض بأن صلة القرابة أمتن الصلات ، وجاء الدين حاثاً عليها

مؤكددا لأواصرها مقويا لأركانها مقدما لحقوقها على سائر الحقوق على حسب

درجات القرابة .

(واليتامى والمساكين) فالإحسان إلى اليتيم بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضياع ، والكتاب والسنة مليئان بالوصية به ، وحسبك من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

والسرفى هذا أن اليتيم لا يجد فى الغالب من تبعته العاطفة على تربيته والقيام بشئونه وحفظ أمواله ، والأم وإن وجدت تكون فى الغالب عاجزة عن تنشئته وتربيته التزبئية المثلى ، إلى أن الأيتام أعضاء فى جسم الأمة ، فإذا فسدت أخلاقهم وساءت أحوالهم تسرب الفساد إلى الأمة جمعاء ، إذ يصبحون قدوة سيئة بين نشئها ، فيدب فيها الفساد ويتطرق إليها الانحلال ، وتأخذ فى الفناء .

والإحسان إلى المساكين بالصدقة عليهم ومواساتهم حين البأساء والضراء ، روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الساعى على الأرملة والمساكين كالجاهد فى سبيل الله (وأحسبه قال) وكالقائم لا يفتر والصائم لا يفطر » . وقدم اليتيم على المسكين ، لأن هذا يمكنه أن يسعى بنفسه للحصول على قوته بخلاف الأول فإن الصغر مانع له من ذلك .

(وقولوا للناس حسناً) أمر الله أولاً بالإحسان بالمال لأقوام مخصوصين وهم الوالدان والأقربون واليتامى والمساكين ، إذ لا يمكن الشخص أن يحسن به إلى الناس جميعاً ، لأنه لا يسع كل الأمة ، ثم اكتفى فى حقوق سائر أفرادها بحسن العشرة والقول الجليل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونحو ذلك مما هو نافع لهم فى الدين والدنيا .

وفى القيام بهذه الفرائض إصلاح لحال المجتمع وسعى فى رقيه وتقدمه حتى يبلغ ذروة الجهد والشرف .

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) بعد أن أمرهم بعبادته وحده على سبيل الإجمال فصل بعضاً من ذلك مما لا يهتدى إليه إلا بهدى إلهى ووحى سماوى .

وأهم ذلك الصلاة التى تصلح النفوس وتنقيها من أدران الرذائل وتحليها بأنواع

الفضائل ، وروحها هو الإخلاص لله والخشوع لعظمته وسلطانه ، فإن فقدته كانت صوراً ورسوماً لا تغني قتيلاً ، وهم ما تولوا ولا أعرضوا عن تلك الصور والرسوم إلى عصر التنزيل بل إلى يومنا هذا .

ثم الزكاة لما فيها من إصلاح شئون المجتمع ، وقد كان لهم ضروب من الزكاة منها مال خاص يؤدي لآل هارون ، وهو إلى الآن في اللاويين (سبط من أسباطهم) ومنها مال المساكين ، ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض ، ومنها سبت الأرض وهو تركها في كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع ، وكل ما يخرج منها في تلك السنة فهو صدقة .

(ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأتمم معروضون) أى ثم كان من أمركم أن توليتهم عن العمل بالميثاق ورفضتموه وأتمم في حال الإعراض عنه وعدم الاهتمام بشأنه ، وفي قوله : « وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » مبالغة في الترك المستفاد من التولى ، لأن الإنسان قد يتولى عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويؤدي ما يجب له ، فليس كل من تولى عن شيء يكون معرضاً عنه .

وقد كان من توليتهم وإعراضهم أن اتخذوا الأحرار والرهبان أرباباً مشرعين يحلون ويحرمون ، ويبيحون ويحظرون ، ويزيدون ما شاءوا من الشعائر والناسك الدينية ، فكأنهم شركاء لله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله ، كما كان من توليتهم أن يخلوا بالمال في الواجبات الدينية كالنفقة على ذوى القربى وأداء الزكاة ، وتركوا النهي عن المنكر إلى نحو ذلك مما يدل على الاستهتار بأمور الدين ، وقوله : « إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ » أخرج بعض من كانوا في عهد موسى عليه السلام ممن أقام اليهودية على وجهها ، ومن كان في عصر التنزيل أو بعده وأسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه من الخالصين المحافظين على الحق بقدر الطاقة وفائدة ذكره عدم بخش العاملين حقهم ، والإشادة بذكرهم ، والإشارة إلى أن وجود القليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب إذا فشا فيها الفساد وعم البلاء ، وقد جرت سنة الله بأن بقاء الأمة عزيزة

مرهوبة الجانب ، ذات سطوة وبأس ، إنما يكون بمحافظه السواد الأعظم فيها على الأخلاق الفاضلة والدأب على العمل الذى به تستحق العز والشرف .
بعد هذا لا عجب فيما ترى من حلول الكرب والبلاء بالمسلمين الذين فتنوا فى دينهم وديارهم وهم غافلون لاهون لا يعتبرون ولا يذكرون .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)

شرح المفردات

السفك الصب والإراقة ، والتظاهر التعاون ، والإثم هو الفعل الذى يستحق فاعله الدم واللوم ، والعدوان تجاوز الحد فى الظلم .

المعنى الجملى

ذكر الله بنى إسرائيل فى الآية السابقة بأهم ما أمروا به من إفراده تعالى بالعبادة والإحسان إلى الوالدين وذوى القربى ، ثم بين أنهم لم ياتمروا بذلك . وفى هذه الآيات ذكرهم بأهم المنهيات التى أخذ عليهم العهد باجتنابها ، ثم نقضوا

الميثاق ولم ينتهوا ، والخطاب هناك للذين كانوا في عصر موسى عليه السلام ، وهو هنا للحاضرين في عصر التنزيل ، إرشاداً إلى أن الأمة كالفرد يصيب خلفها أثر ما كان عليه سلفها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ما داموا على سنتهم ، يحتذون حذوهم ويحرون على نهجهم ، كما أن ما يفعله الشخص حين الصغر يؤثر في قواه العقلية وأخلاقه النفسية حين الكبر ، والمشاهدة أكبر برهان على ذلك .

الإيضاح

(وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم)
 أى وإذ أخذنا عليكم العهد : لا يريق بعضكم دم بعض ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم وأوطانهم ، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه ، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به ديناً أو نسباً ، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها ، وأن ما يصيب واحداً منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء ، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم ، فالروح الذى يحيا به والدم الذى ينبض فى عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم ، لا فرق بينهم فى الشريعة التى وحدت بينهما فى المصالح العامة ، وهذا ما يؤمى إليه الحديث « إنما المؤمنون فى تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر » .

وقد يجوز أن يكون المعنى لا ترتكبوا من الجرائم ما تتجاوزون عليه بالقتل قصاصاً أو بالإخراج من الديار فتكونون كأنتكم قد قتلتم أنفسكم ، لأنكم فعلتم ما تستحقون به القتل ، كما يقول الرجل لآخر قد فعل ما يستحق به العقوبة : أنت الذى جنى على نفسه .

(ثم أقررتم وأنتم تشهدون) أى ثم أقررتم بهذا الميثاق أيها الحاضرون الخطابون واعترفتم به ولم تنكروه بالسنتكم ، بل شهدتم به وأعلنتموه ، فالحجة عليكم قائمة — وقد يراد — وأنتم أيها الحاضرون تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق وقبوله ، وشهودهم الوحى الذى نزل به على موسى عليه السلام .

(ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) أى ثم أتم بعد ذلك التوكيد فى الميثاق تنقضون العهد فتقتلون أنفسكم : أى يقتل بعضكم بعضا كما كان يفعل من قبلكم ، مع أنكم معترفون بأن الميثاق أخذ عليكم كما أخذ عليهم .

ومن حديث ذلك أن بنى قينقاع من اليهود كانوا حلفاء الأوس وأعداء لإخوانهم فى الدين بنى قريظة ، كما كان بنو النضير حلفاء الخزرج ، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء يقتتلون ، ومع كل حلفاؤه ، وهذا ما نناه الله على اليهود بقوله : « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ » .

(وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب ، والعدوان كالإخراج من الديار .

(وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم) أى وكانوا إذا أسر بعض العرب وحلفاؤهم من اليهود بعضاً من اليهود أعدائهم وافتقوا على فداء الأسرى ، يفدى كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ، ثم يعتذرون عن هذا بأن الكتاب أمرهم بفداء أسرى ذلك الشعب المقدس ، فإن كانوا مؤمنين حقاً بما يقولون ، فلم قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم والكتاب ينههم عن ذلك ؟ أفليس هذا إلا لعباً واستهزاء بالدين ؟

(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) أى أفعلون ما ذكر فتؤمنون بالحق . وذلك أن الله أخذ على بنى إسرائيل العهد فى التوراة ألا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، وقال : أيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه وأعتقوه - لكنهم قتلوا وأخرجوا من الديار مخالفين العهد ، وافتدوا الأسرى على مقتضى العهد ، أفليس هذا إلا إيماناً ببعض الكتاب وكفراً ببعضه الآخر ؟ وذلك منتهى ما يكون من الحماقة ، فإن الإيمان لا يتجزأ ، فالكفر ببعضه كالكفر ب كله .

قال الأستاذ الإمام : في التعبير عن الخالفة والمعصية بالكفر دليل على أن من يقدم على الذنب لا يتألم ولا يتندم بعد وقوعه ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهي الله عنه وتحريمه له فهو كافر به ، وهذا هو الوجه في الأحاديث الصحيحة نحو « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن » اهـ .

(فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) هذا وعيد من الله لهم على نقضهم الميثاق الذي جعلهم أمة واحدة ذات شريعة هي رباط وحدتهم بخزي عاجل في هذه الحياة وعذاب آجل في الآخرة . وقد دلت المشاهدة على أن كل أمة تنسق عن أمر ربها وتطرح أوامر دينها وراءها ظهريا يتفرق شملها وينزل بها عذاب الهون جزاء فساد أخلاقها وكثرة شرورها .

أما من استقاموا على الطريقة وزكت نفوسهم وصلحت أحوالهم فلهم عند ربهم نعيم مقيم ، يرشد إلى ذلك قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » . (وما الله بغافل عما تعملون) فهو مجازيكم على ما اجتريتم من السيئات ، ولا يخفى ما في هذا من وعيد شديد وزجر عظيم .

(أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) أي أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة ، قدموا حظوظهم في هذه الحياة على حظوظهم في الحياة الآخرة بما أهملوا من الشرائع وتركوا من أوامرها التي يعرفونها كما يعرفون أبناءهم كالانتصار للحليف المشرك ومظاهرتهم على قومه الذين تجمعهم وإياه رابطة الدين والنسب ، وإخراج أهله من دياره ابتغاء مرضاته .

(فلا يخفف عنهم العذاب) يوم القيامة (ولا هم ينصرون) لأن أعمالهم قد سجلت عليهم الشقاء ، وأحاطت بهم الخطايا من كل جانب ، فسدت عليهم باب الرحمة ، وقطعت عنهم الفيض الإلهي ، فلا يجدون شافعا ينصرهم ، ولا وليا يدفع عنهم ما حل بهم من النكال والوبال في جهنم وبئس القرار .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا
 عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ
 بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ، فَفَرَقْنَا بِكُفْرِكُمْ الْفَرَقَ ، وَفَرَقْنَا
 تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَفَقَلِيلًا
 مِمَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

شرح المفردات

قفاه به إذا أتبعه إياه ، وعيسى بالسريانية يسوع ومعناه السيد أو المبارك ،
 ومريم بالعبرية الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس ، والبيئات الحجج الواخحة
 التي أوتيتها عليه السلام من المعجزات ، وأيدناه أى قويناه ، وروح القدس
 أى الروح القدس المطهر وهو جبريل عليه السلام الذى ينزل على الأنبياء ويقدر
 نفوسهم ويزكيها ، ويطلق عليه الروح الأمين كما قال نزل به الروح الأمين على قلبك
 لتكون من النذرين بلسان عربى مبين ، والغلف واحدها أغلف وهو الذى لا يفقه
 ما يقال له .

المعنى الجملى

جرت سنة الله فى البشر أنه إذا طال عليهم الأمد بعد أن تأتيهم الرسل تقسو
 منهم القلوب ويذهب أثر الموعظة من الصدور ويفسقون عن أمر ربهم ويحرفون
 ما جاءهم من الشرائع بضروب من التأويل ، وينسون ما أُنذروا به من قبل ، يرشد
 إلى هذا قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ
 مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
 قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

من أجل هذا كان الله تعالى يرسل الرسل بعضهم إثر بعض حتى لا يطول الإنذار فتقسو القلوب ، وقد كان الشعب الإسرائيلي أكثر الشعوب حظا في عدد الرسل الذين أرسلوا إليهم ، فليس لهم من العذر ما يسوغ نسيان الشرائع أو تحريفها وتأويلها ، ولكن كانوا يطيعون أهواءهم ، ويتبعون شهواتهم ، ويعصون رسلهم ، فمنهم من كذبوه ، ومنهم من قتلوه .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيننا من بعده بالرسل) أى ولقد أعطينا موسى الكتاب المقدس وهى التوراة ، ثم أتبعنا من بعده رسولا بعد رسول مقتفين أثره ، فلم يمض زمن إلا كان فيه نبي أو أنبياء يأمرون وينهون ، فلا عذر لهم فى نسيان الشرائع أو تحريفها وتغيير أوضاعها .

ثم خص من أولئك الرسل عيسى عليه السلام فقال :

(وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) أى وأعطينا عيسى المعجزات الباهرة التى تدل على صدق نبوته وأنه موحى إليه من ربه ، وأيدناه بروح الوحي الذى يؤيد الله تعالى به أنبياءه فى عقولهم ومعارفهم كما قال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » الآية وأرسلناه بعد ظهور كثير من الرسل ولم يكن حظه بينهم أحسن من حظ سابقيه .

ثم بين ماذا كان حظ الرسل من بنى إسرائيل فقال :

(أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟) أى أبلغ الأمر بكم أنكم كلما جاءكم رسول من رسلى بغير الذى تهوى نفوسكم استكبرتم عليهم تجبرا وبغيا فى الأرض ؟

(ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) أى فبعضا منهم تكذبون كعيسى وعمره عليهما السلام ، وبعضا تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام ، فلا عجب بعد هذا أن لم تؤمنوا

بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن العناد والجحود من طبعكم ، وسجية عرفت عنكم ، ولا غرابة في صدور ما صدر منكم .

(وقالوا قلوبنا غلف) القائلون هم الذين كانوا منهم عصر التنزيل ، أى وقالوا قلوبنا مغطاة بأغشية خلقية مانعة من تفهم ما جئت به ، ونحو هذا قولهم : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ » . ثم رد عليهم وكذبهم فيما زعموا .

(بل لعنهم الله بكفرهم) أى ليس الأمر كما يدعون ، بل قلوبهم خلقت مستعدة على حسب الفطرة للنظر الذى يوصل إلى الحق ، لكن الله أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم وقد ذكر اللعن وعلمته جرياً على سنة الله فى ربط المسببات بأسبابها ، وبيان أن الله لم يظلمهم بهذا ، بل هم ظلموا أنفسهم بالتماذى فى الكفر والعصيان . ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سبق فقال :

(فقليلاً ما يؤمنون) أى فهم يؤمنون إيماناً قليلاً ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وتحريف بعضه الآخر أو ترك العمل به ، والذى آمنوا به كان قولاً باللسان تكذبه الأعمال ، إذ لم يكن للإيمان سلطان على قلوبهم ، فيكون هو الحرك لإرادتهم ، وإنما يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة .

وقد يكون المعنى كما قال ابن جرير أنه لا يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به إلا القليل منهم ، فالخالفه لم تغمر كل الشعب بل غمرت الأكثر منهم ونجا نفر قليل .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَمَنَّ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِشَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا

بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ،
 فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ
 لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ
 وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

شرح المفردات

يستفتحون أى يستنصرون ، وشرى واشترى يستعملان حيناً بمعنى باع وأخرى
 بمعنى اتباع وأخذ ، والمراد هنا المعنى الأول ، والبغى فى الأصل الفساد من قولهم بغى
 الجرح إذا فسد ، ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شيء ، وباء رجع ، ومهين أى فيه
 إهانة وإذلال ، ووراء بمعنى سوى كما يقول الرجل لمن يتكلم بحيد الكلام : ما وراء
 هذا الكلام شيء .

الإيضاح

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على
 الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين) وهذا مرتبط
 معنى بقوله : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ » أى وقالوا قلوبنا غلف وكذبوا لما جاءهم
 كتاب الحق وقوله : (مصدق لما معهم) أى موافق له فى التوحيد وأصول الدين
 ومقاصده ، وقوله : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أى يستنصرون به
 على مشركى العرب وكفار مكة ويقولون إن كتابه سينصر التوحيد الذى جاء به
 موسى ويخذل الوثنية التى تلتحلونها .

روى ابن جرير عن قتادة الأنصارى عن شيوخ منهم أنهم قالوا فينا وفيهم
 (فى الأنصار واليهود) نزلت هذه القصة ، كنا علوانهم دهرأ فى الجاهلية ونحن أهل الشرك

وهم أهل الكتاب ، وكانوا يقولون إن نبيا الآن مبعثه قد أظلم زمانه ، يقتلكم قتل عاد وإرم ، فلما بعث رسول الله اتبعناه وكفروا به .

وسبب هذا أنهم حسدوا العرب على أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم من بينهم فحلمهم ذلك على الكفر به جحوداً وعناداً ، فسجل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحته ، لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم .

(بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله) أى بشئ الشئ الذى باعوا به أنفسهم وبذلوا . الكفر بما أنزل الله ، وهو الكتاب المصدق لما معهم ، أى أنهم اختاروا الكفر على الإيمان وبذلوا أنفسهم فيه ، وكأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع ، ثم بين علة ذلك فقال :

(بغيًا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) أى أنهم كفروا لمحض العناد الذى هو نتيجة الحسد ، وكراهة أن ينزل الله الوحي من فضله على من يختاره من عباده ، ولا بغى أقبح من بغى من يريد الحجر على الله ، فلا يرضى أن يعمل الوحي فى آل إسماعيل كما جعله من قبل فى آل إسحاق .

(فبأءوا بغضب على غضب) أى فرجعوا وهم مستوجبون لغضب : غضب الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم فوق الغضب الذى استحقوه من قبل بإعنات موسى عليه السلام والكفر به .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(وللكافرين عذاب مهين) أى ولهم بسبب كفرهم عذاب يصحبه إهانة وإذلال فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبما يصيبهم من الخزي والشكال وسوء الحال ليكونوا عبرة لمن يخلفهم من بعدهم ، وأما فى الآخرة فبخلودهم فى جهنم وبئس المصير . ثم ذكر ما يكون منهم لدى الحوار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

(وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا تؤمن بما أنزل علينا) أى وإذا قال النبي

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليهود المدينة وما حولها : آمنوا بالقرآن الذى أنزله الله ، قالوا نحن دائبون على الإيمان بما أنزل على أنبياء بنى إسرائيل كالنوراة وغيرها .
(ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم) أى وهم يكفرون بما سوى التوراة وهو القرآن الذى جاء مصدقا لها ، وهو الحق الذى لا شك فيه ، وكيف يكفرون به وهو مؤيد عندهم بالعتل والنقل ؟

(قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟) أى قل لهم إلزاما بالحجة بعدما اقترفوا من غش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه . إن كنتم صادقين حقا فى اتباعكم ما أنزل الله على أنبيائكم ، فلم تقتلتموهم ؟ وليس فى دينكم الأمر بالقتل بل فيه شديد العقاب على القتل مطلقا فضلا عن قتل الأنبياء ، فما هذا منكم إلا تناقض بين الأقوال والأفعال .

وقد نسب القتل إليهم والقاتل أسلافهم لما تقدم غير مرة من أن مثل هذا يقصد به بيان وحدة الأمة وتكافلها ، وأنها فى الطباع والأخلاق المشتركة كالشخص الواحد ، فما يصيبها من حسنة أو سيئة فإنما مصدره الأخلاق الغالبة عليها ، فما حدث منهم كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع فيها الآخرون الأولين : إما بالعمل بها ، وإما بترك الإنكار لها ، فالحجة تقوم على الحاضرين بأن أسلافهم الغابرين قتلوا الأنبياء فأقروهم على ذلك ولم يعدوه خروجاً من الدين ولا رفضاً للشرعية ، وفاعل الكفر ومجيزه سواء .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

شرح المفردات

البيانات هي الآيات والدلائل التي تدل على صدقه والمعجزات التي تؤيد نبوته كالعصا واليد ، العجل هو الذي صنعه لهم السامري من حليهم وجعلوه إلها وعبدوه ، وأشرب قلبه كذا أى حل محل الشراب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ فهو يسرى في قلب الحب ويمارجه كما يسرى الشراب العذب البارد في اللهاة ، وحقيقة أشربه كذا جعله شارباً له ، والمراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها ، خالصة أى خاصة بكم ، تمنوا الموت أى تشوفوا له واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه وتود المصير إليه ، بِمُزَحِّزٍ لَهُ بِمَزْحٍ مِنْ الْعَذَابِ ، والبصير العالم بكنهه الشيء الخبير به .

المعنى الجملى

عدد سبحانه في الآيات السالفة ما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم ، وذكر ما قابلوها به من الكفران ، وهنا ذكر أن الآيات البيانات الدالة على صدق دعوة موسى ووحدانية الله وعظيم قدرته لم تزدكم إلا انهماكا في الشرك وتوغلا في ضروب الوثنية ، فالنعم التي أسبغنا عليهم لم يكن لها من شكر إلا اتخاذ العجل إلها يعبدونه من دون الله ، فكيف يعتذرون عن عدم الإيمان بمحمد بأنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل إليهم . وهذا دليل على قسوة قلوبهم وفساد عقولهم ، فلا أمل فيهم لهداية ولا مطمع

لتفكر وتأمل بعد أن اختل الوجدان وضعف الجنان . وهذه الآيات البينات التي ذكرت هنا كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة ، وما ذكر من النعم هناك كان في أرض الميعاد .

الإيضاح

(ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) أى ومن عظيم كفرانكم للنعم أن موسى قد جاء بالأدلة القاطعة والبراهين الناصعة على توحيد الله وعظيم قدرته ، فخالقتم ذلك وعصيتهم أمره وعبدتم عجل السامرى من بعد ذلك ، فهذا ظلم ووضع للشيء في غير موضعه اللائق به ، وأى ظلم أعظم من الإشراك بالله بعبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) قد سبق شرح مثل هذا من قبل سوى أنه قال هناك « خذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ » وهنا قال : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، فأمرهم هناك بالحفظ وأمرهم هنا بالفهم والطاعة ، والعبارتان متقاربتان في المراد .

(قالوا سمعنا وعصينا) أى أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ، لكنهم لم يعملوا به وخالفوه ، وليس المراد أنهم نطقوا بقولهم (سمعنا وعصينا) بل كانوا بمثابة من قال ذلك ، والعرب تعبر عن حال الإنسان وغيره من الحيوان والجماد بقول تحكيه عنه يوصى إلى ما يجول في قرارة نفسه ويدور بخلد فيكون هذا القول ترجمانا عنه .

(وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) أى صار حب العجل نافذا فيهم نفوذ الماء فيما يدخل فيه ، وقوله : بكفرهم ؛ أى أن سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية في مصر ، فرسخ الكفر في قلوبهم بتدادى الأيام وورثه الخلف عن السلف .

(قل يا أيها الذين آمنوا إن كنتم مؤمنين) أى قل توبيخا لليهود الحاضرين

بعد أن علموا أحوال رؤسائهم السالفين الذين يقتدون بهم ويحتذون حذوهم فى كل ما يأتون وما يذرون : إن كنتم مؤمنين بالتوراة حقاً ، فبئس هذا الإيمان الذى يأمر بهذه الأعمال التى أنتم تفعلونها كعبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق ، فهذه دعوى لا تقبل منكم ، بل يجب القطع بعدم وجودها ، بدليل ما يصدر عنكم من الأعمال التى يستحيل أن تكون أثراً للإيمان .

وقد سيقّت هاتان الآيتان رداً على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وزعموا أنهم مؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله بالإيمان بغيرها ، فهى حجة عليهم تشرح طبيعة الإيمان وأثره فى المؤمن .

(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى إن صدق قولكم وصحت دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، وفى أنكم شعب الله المختار ، وأن النار لن تمسكم إلا بأما معدودات ، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذى لا ينفاز عنكم فيه أحد ، إذ لا يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء . وقد روى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تنفى الموت عند القتال معبرين بالسنتهم عما يحول فى صدورهم من صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين فى الدار الآخرة ، فقد جاء فى الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

وأن عمار بن ياسر فى حرب صفين قال :

غداً نلقى الأحبه محمداً وصحبه

فإن لم تتموه ، بل كنتم شديدى الحرص على هذه الحياة ، فما أنتم بصادق الإيمان . وهذه حجة تنطبق على الناس عامة ، فيجب على المسلمين أن يجعلوها ميزاناً يزنون به دعواهم اليقين بالإيمان والقيام بحقوق الله ، فإن ارتاحت نفوسهم لبذل

أرواحهم في سبيل الله والذود عن الدين كانوا مؤمنين حقاً ، وإن ضنوا بها وكانوا شديدي الحرص على الحياة إذا جد الجد ودعا الداعي كانوا بعكس ما يدعون .

(ولن يتموه أبداً بما قدمت أيديهم) أى ولن يقع منهم هذا التنبى بحال ، لأنهم يعرفون ما اجتريحتة أنفسهم من المعاصى والذنوب التى يستحقون بها العقوبة كتحرير التوراة والكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم مع البشارة به فى كتابهم .

والعرب تسند الفعل إلى الأيدى لأن أكثر الأعمال تراول بها ، ويجملون المراد بها الشخص .

(والله عليم بالظالمين) أى والله يعلم أنهم ظالمون فى حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم ، وأن غيرهم من الشعوب محروم منها ، ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد .

(ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى أنهم يحبون الإخلاص إلى الأرض ويعملون كل ما يوصلهم إلى البقاء ، فلا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون ، وتلك سيرتهم فى كل زمان وإن كان الكلام مع من كان فى عصر التنزيل .

وهكذا القرآن يرسل عليهم سيلاً من الحجاج فيشغبون ويعاندون اعتزازاً بشعبهم واغتراراً بكتابهم .

(ومن الذين أشركوا) أى أنهم أحرص من جميع الناس حتى من الذين أشركوا ، وفى هذا توبيخ وإيلام عظيم لهم ، إذ أن المشركين لا يؤمنون ببعث ولا يعرفون إلا هذه الحياة ، غرصهم عليها ليس بالغريب ، أما من يؤمن بكتاب ويقر بالجزاء فمن حقه ألا يكون شديد الحرص عليها .

(يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) أى يتمنى كل منهم أن يبقى على قيد الحياة ألف سنة أو أكثر ، لأنه يتوقع سخط الله وعقابه ، فيرى أن الدنيا على ما فيها من الآلام والأكدار خير له مما يستيقن وقوعه فى الآخرة ، والعرب تضرب الألف مثلاً للمبالغة فى الكثرة .

(وما هو بمنزحزحه من العذاب أن يعمر) أى وما بقاؤه فيها بمنجيته ولا ببعده من العذاب المعد له ، فإن العمر مهما طال فهو منته لا محالة .
 (والله بصير بما يعملون) أى والله عليم بخفيات أعمالهم ، وبجميع ما يصدر منهم وهو يجازيهم به ، فطول العمر لا يخرجهم من قبضته ولا ينجيهم من عقابه ، فالمرجع إليه والأمر كله بيديه .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا
 لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)
 وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)
 أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

المعنى الجملى

ذكر قبل هذه الآيات معاذير لليهود اعتذروا بها عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من الآيات البينات ، كقولهم إنهم مؤمنون بكتاب من ربهم فلا حاجة لهم بهداية غيره ، فنقض دعواهم وألزمهم الحجة ، وقولهم إنهم ناجون حتماً فى الآخرة لأنهم شعب الله وأبنائه فأبطل مزاعمهم ودحض حججهم .

وهنا ذكر تعللة أخرى هى أعجب من كل ما تقدم وفندها كما فتد ما قبلها ، تلك هى قولهم : إن جبريل الذى ينزل على محمد بالوحي عدوهم ، فلا يؤمنون بما يجيىء به منه ، وقد أثر عنهم عدة روايات تشرح هذه المقالة .

منها أن أحد علمائهم وهو عبد الله بن سوريا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الملك الذى ينزل عليه بالوحي ، فقال : هو جبريل ، فقال ابن سوريا : هو عدو اليهود لأنه أنذرهم بخراب بيت القدس فكان ما أنذر به .

ومنها أن عمر بن الخطاب دخل مدارسهم فذكر جبريل فقالوا ذاك عدونا ،
يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وأن ميكائيل ملك
الرحمة ينزل بالغيث والرخاء .

ولا شك أن هذا منهم دليل على خطئ الرأي وعدم التدبر ، وإنما ذكره
الكتاب الكريم ليستبين للناس حجج أهل الكتاب ويعرفوا مقدار مرائهم
وسخفهم في جدتهم وأنهم ضعاف الأحلام قليلو التبصر في عواقب ما يقولون .

الإيضاح

(قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) أى قل لهم أيها
النبي حاكياً لهم عن الله : من كان عدواً لجبريل ، فإن من أحوال جبريل أنه ينزل
القرآن على قلبك ، أى فهو عدو لوجى الله الذى يشمل التوراة وغيرها ، ولهدى الله
خلقه ، ولبشرائه المؤمنين ، وقوله : بإذن الله يرشد إلى أن مناجاته لروحك ومخاطبته
قلبك إنما كان بأمر الله لا افتياتاً منه ، فعداوته لا تمنع من الإيمان بك ولا تصلح أن
تكون عدواً لهم ، إذ القرآن من عند الله لا من عنده .

(مصداقاً لما بين يديه) أى هو موافق للكتب التى تقدمته فيما يدعو إليه من
توحيد الله والسير على السنن القويم .

(وهدى) أى أنزله الله هادياً من الضلالات والبدع التى طرأت على الأديان .

(وبشرى للمؤمنين) أى أنه بشرى لمن آمن به ، فليس لكم أن تتركوها

لأجل أن جبريل جاء منذراً بخراب بيت المقدس ، لأنه إنما أنذر المفسدين .

وكل هذه حجج أقامها لبيان سخفهم وكال حقهم ، وللإرشاد إلى أنها لا تصلح

أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب أنزله الله جامع لكل هذه الصفات الشريفة .

(من كان عدواً لله) العدو ضد الصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث والثنى

والجمع ، وعداوة الله مخالفة أوامره وعدم القيام بطاعته ، والكفر بما ينزله لهداية

الناس على لسان رسوله .

(وملائكته) بكراهة العمل بما يعهد به إليهم ربهم من رسالات يبلغونها للناس .

(ورسله) بتكذيبهم فى دعوى الرسالة مع قيام الأدلة على صدقها ، أو بقتل بعضهم كما فعلوا مع زكريا ويحيى .

(وجبريل وميكال) بادعاء أن الأول يأتى بالآيات والنذر ، ومن عاداه فقد عادى ميكائيل ، لأن الداعى إلى محبتهم وعداوتهم واحد .

(فإن الله عدو للكافرين) أى من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين عنده ، فالله عدو له ، لأنه كافر به ومعادٍ له ، وهو الظالم لنفسه حين دعاه فلم يجب .

وفى هذا من شديد الوعيد ما لا يخفى ، إذ فيه تصريح بأنهم أعداء الحق وأعداء كل من يدعو إليه ، ومعاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب السماوية لأن المقصد من الجميع واحد وهو هداية الناس وإرشادهم إلى سبل الخير ، ومعاداة محمد صلى الله عليه وسلم كمعاداة سائر الأنبياء لأن رسالتهم واحدة والمقصد منها متحد .

(ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) لاقران نظرياتهما الاعتقادية بأدلتها ، وأحكامها العملية بوجوه منافعتها ، فلا تحتاج إلى دليل آخر يوضحها ، فهى كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى ما يظهره .

(وما يكفر بها إلا الفاسقون) الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسدا لمن ظهر الحق على يديه عناداً ومكابرة منهم .

(أو كما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟) النبذ طرح الشيء وإلقاؤه ، والعهد هنا هى عهودهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، والفريق العدد القليل ، وإذ كان لفظ الفريق يؤم قالة العدد مع أن الناقضين للعهد هم الأكثر أضرب عنه وقال :

(بل أكثرهم لا يؤمنون) لأنهم لا عهود لهم ، وهذا من إخبار الغيب إذ أن أكثر اليهود ما آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ولن يؤمنوا به فمثل هذا الحكم لا يصدر إلا ممن يعلم خفيات الأمور .

والخلاصة — أن الله سبحانه بين في هذه الآية حالين لأهل الكتاب : أولاهما أنه لا يوثق بهم في شيء لما عرف عن كثير منهم من نقض العهود في كل زمان ، ثانيتهما أنه لا يرجى إيمان أكثرهم لأن الضلال قد استحوذ عليهم وجعلهم في طغيانهم يعمهون .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَاهُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

شرح المفردات

كَفَرَ أى سحر ، والسحر لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ، وسحره خدعه ، وجاء في كلامهم عين ساحرة وعيون سواحر ، وفي الحديث « إن من البيان لسحرا » والإيزال الإلهام ، وسمى بذلك لأنهما ألهماه واهتديا إليه من غير معلم ، والمكان

رجلان صاحباهيبة ووقار يجلبهما الناس ويحترمونهما ، وبابل بلد بالعراق لها شهرة تاريخية قديمة والخلّاق النصيب والحظ ، وشروا أى باعوا .

المعنى الجملى

يَبِّنُ سبحانه فى هذه الآيات حالا من أحوالهم هى علة ما يصدر عنهم من جحود وعناد ومعاداة للنبي صلى الله عليه وسلم ، هى أن فريقا منهم نبذوا كتاب الله الذى به يفخرون ، حين جاء الرسول بكتاب مصدق لما بين أيديهم ، فإن ما فى كتابهم من البشارة بنبيٍّ يَجْئُ من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على هذا النبي الكريم .

وليس المراد أنهم نبذوا الكتاب حجة وتفصيلا ، بل نبذوا منه ما يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته وما يأمرهم بالإيمان به واتباعه ، ولا شك أن ترك بعضه كترك كله ، إذ أنه يذهب باحترام الوحي ويفتح الباب لترك الباقي . وهذا الجحود لم يكن بضائر للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لدعوته فقد قبلها واهتدى بها كثير من اليهود ومن غيرهم .

وحين نبذوه اشتغلوا بصناعات وأعمال صادة عن الأديان من صنع شياطين الإنس والجن ، فاشتغلوا بالسحر والشعوذة والطَّلَسَّات التى نسبوها إلى سليمان وزعموا أن ملكه كان قائما عليها .

وهذه أباطيل منهم وسوسوا بها إلى بعض المسلمين فصدقوهم فيما زعموا منها ، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر ، ولا يزال حال الدجالين من المسلمين إلى اليوم يتلون العزائم ويخطون خطوطا ويعملون طلسمات يسمونها خاتم سليمان ، ويعهدوا يزعمون أنها تحفظ من يحملها من اعتداء الجن ومس العفاريت .

وإنما قص القرآن علينا هذا القصص للذكرى ، وليبين لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر فكان صاددا عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود ، ومن ثم لم يهتدوا بالنبي الذى بشر به كتابهم .

الإيضاح

(ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) أى أنه حين جاء النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب مصدق للتوراة التى بين أيديهم بما فيه من أصول التوحيد وقواعد التشريع وروائع الحكم والمواعظ وأخبار الأمم الغابرة — نبذ فريق من اليهود كتابهم وهو التوراة ، لأنهم حين كفروا بالرسول المصدق لما معهم فقد نبذوا التوراة التى فيها أن محمدا رسول الله ، وأهلها إيمالا تاما كأنهم لا يعلمون أنها من عند الله .

وقد جعل تركهم إياها وإنكارهم لها إلقاء لها وراء الظهر ، فإن من يلقي الشيء وراء ظهره لا يراه فلا يتذكره .

(واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) أى اتبع فريق من أحبار اليهود وعلمائهم الذين نبذوا التوراة تجاهلا منهم بما هم به عالمون — اتبعوا السحر الذى تلتته الشياطين فى عهد سليمان بن داود وعملوا به ، وذلك هو الخسران المبين .

وقد زعموا أن سليمان هو الذى جمع كتب السحر من الناس ودفعها تحت كرسيه ثم استخرجها الناس وتناقلوها ، وهذا من مقتريات أهل الأهواء نسبوها إليه كذبا وبهتاناً .

(وما كفر سليمان) أى وما سحر ، لأنه لو فعل ذلك فقد كفر ، إذ كونه نبيا ينافى كونه ساحرا ، فالسحر خداع وتمويه ، والأنبياء مبرعون من ذلك .

(ولكن الشياطين كفروا) أى ولكن الشياطين من الأنس والجن الذين نسبوا إليه ما اتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا .

(يعلمون الناس السحر) قد جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع كثيرة ولا سيما فى قصص موسى وفرعون ، ووصفه بأنه خداع وتخيل للأعين حتى ترى

ما ليس بكائن كائنا كما قال « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » وقال في آية أخرى « فَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَامْتَرَهُبُوهُمْ » .

والآية نص صريح على أن السحر كان يعلم ويلقن ، والتاريخ يؤيد هذا .
والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفي يعرفه بعض الناس ويجهله الكثير منهم ، ومن ثم يسمون العمل به سحرا يخفاء سببه عليهم ، وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين حتى خيّل إلى الناس أنها تسعى .

وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة المعاش أن يتكلموا بأسماء غريبة وألفاظ مبهمه اشتر بين الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن ليوهوهم أن الجن يستجيبون دعاءهم ويسخرون لهم ، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب .

ولمثل هذا تأثير في إثارة الوهم دلت التجربة على وجوده ، وهو يغني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته فيمن يعمل له السحر .

(وما أنزل على الملوكين بيابل هاروت وماروت) في الملوكين قراءتان فتح اللام وكسرهما ، وهما رجلان شهما إما بالملائكة لانفرادهما بصفات محمودة وقد جرت العادة أن يقولوا هذا ملك وليس بإنسان ، وإما بالملوك كما يقال لمن كان سيدا عزيزا يظهر الغنى عن الناس : هذا من الملوك ، وكان الناس في عهد هاروت وماروت كحالهم اليوم لا يقصدون للفصل في شؤونهم الروحية إلا أهل السمات والوقار الذين يلبسون لباس أهل الصلاح والتقوى .

وظاهر الآية يدل على أن ما أنزل على الملوكين غير السحر لكنه من جنسه ، وقد ألهموا واهتديا إليه بلا أستاذ ولا معلم ، وقد يسمى مثل هذا وحيا كما في قوله « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » .
(وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتننة فلا تكفر) أى وما يعلم الملكان

أحدا حتى ينصحاه ويقول له : إنما نحن ابتلاء من الله عز اسمه ، فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم ولم يعمل به ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به ، وفي هذا إيماء إلى أن تعلم السحر وكل ما لا يجوز اتباعه والعمل به ليس محظورا ، وإنما الذي يحظر ويمنع هو العمل به فقط .

وإنما كانا يقولان ذلك إبقاء على حسن اعتقاد الناس فيهما ، إذ كانا يقولان إنهما ملكان ، كما نسمع الآن من الدجالين الذين يحترفون مثل ذلك لمن يعلمونهم الكتابة للحب والبغض : نوصيك بالآلا تكتب هذا لجلب امرأة إلى حب غير زوجها ، ولا تكتب لأحد الزوجين أن يبغض الآخر ، بل تجعل ذلك للمصلحة العامة كالحب بين الزوجين والتفريق بين عاشقين فاسقين ، وهذا منهم إيهام بأن علومهم إلهية وصناعتهم روحية .

(فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى كانوا يتعلمون منهما ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين ، مما يسمى الآن (كتاب البغضة) .

والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر - أمؤثر بطبعه أو بسبب خفي أو بخارق من خوارق العادات ، أم غير مؤثر ؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه أتمائم وكتابة هو أم تلاوة رقى وعزائم ، أم أساليب سعاية ، أم دسائس تنفير ونكاية ، أم تأثير نفساني ، أم وسواس شيطاني ؟ فأى ذلك أثبتته العلم كان تفصيلا لما أجمله القرآن ، ولا تتحكم في حمله على نوع منها ، ولو علم الله الخير في بيانه لبينه ، ولكنه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم في العلم ، فهو الذى يحلّي الغامض ويكشف الحقائق .

(وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أى أن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط الله بها مسبباتها ، فاذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فأنما ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

(ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) من قبل أنه سبب في إضرار الناس ، وهذا

مما يعاقب الله عليه ، ومن عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ، ولا نفع لهم فيه فانا نرى منتحلي هذه المهن من أقتر الناس وأحقرهم ، وذلك حالهم فى الدنيا ، فما بالك بهم فى الآخرة يوم يجزى كل عامل بما عمل .

(ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) أى أنهم عالمون بأن من اختار هذا وقدمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التى توصل إلى السعادة فى الدارين فليس له حظ فى الآخرة ، لأنه قد خالف حكم التوراة التى حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة من اتبع الجن والشياطين والكهان كعقوبة عابدى الأصنام والأوثان .

(ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) أى ولبئس ما باعوا به أنفسهم السحر ، وعبر عن بيع الإيمان ببيع النفس ، لأنها إنما خلقت لمعرفة الدين والعمل به أى أنهم لو كانوا يعلمون حرمة السحر علما يصدر عن اعتقاد له أثر فى النفس ويصدقون بما توعد به مرتكبه من العقوبة — لما ارتكبوه ولا أصروا عليه ، لكنهم خانهم هذا النوع من العلم واكتفوا بعلم مبهم لا أثر له فى النفس فتسرب إليهم كثير من التأويل والتحريف لنصوص التوراة .

وهذا هو ما يفعل مثله بعض المسلمين اليوم ، إذ ينتهكون بعض حرمان الدين بمثل تلك التأويلات ، فيمنعون الزكاة بحيلة ، ويأكلون أموال الناس بحيلة أخرى ، ويشهدون الزور بحيلة ثالثة وهكذا .

(ولو أنهم آمنوا واتقوا لثوبة من عند الله خير) أى ولو أنهم آمنوا بالإيمان الحق بكتابهم ، وفيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر باتباعه ، واتقوا الله بالحفاظة على أوامره واجتناب نواهيه — لكان هذا الثواب العظيم الذى ينتظرونه من الله جزاء على أعمالهم الصالحة خيراً لهم من كل ما يتوقعون من المنافع والمصالح الدنيوية .

(لو كانوا يعلمون) أى أنهم ليسوا على شىء من العلم الصحيح ، إذ لو كان

كذلك لطيرت نتائجها في أعمالهم ، ولآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوه وصاروا من الفلاحين ؛ لكنهم يتبعون الظن ويعتمدون على التقليد ، ومن جرّاء هذا خالفوا الكتاب وساروا وراء أهوائهم وشهواتهم فوقعوا في الضلال البعيد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا
وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابُ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

شرح المفردات

راعنا أى راعنا سمعك أى اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ، وانظرنا أى راقبنا
وأهلنا وانتظر ما يكون من شأننا ، والمودة محبة الشيء وتتمنى حصوله .

المعنى الجملى

هذا خطاب وجه إلى المؤمنين في شأن له اتصال باليهود ، وبه انتقل من
الأحاديث الخاصة بهم إلى حديث مشترك بينهم وبين المؤمنين والنصارى في أمر
من أمور الدين .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا) نهى الله الصحابة
عن كلمة كانت تدور على ألسنتهم حين خطابهم النبي صلى الله عليه وسلم وهى
كلمة (راعنا) ومعناها راعنا سمعك أى اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه وتراجعك
القول انفهمه عنك ، وانظرنا أى راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تلقينه
علينا وفهمه .

وسبب نهيهم عنها أن اليهود لما سمعوها افتروها وصاروا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم لاوين بها ألستهم لمواقفة جرسها العربى لكلمة (راعينو) العبرية التى معناها (شرير) فأرشد الله نبيه الكريم لذلك وأمر أصحابه أن يقولوا (انظرونا) وهى خير منها وأخف لفظاً وتفيد معنى الإنظار والإمهال ، كما تفيد معنى المراقبة التى تستفاد من النظر بالعين ، إذ تقول: نظرت الشيء ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيت .

(والكاافرين عذاب أليم) الكافرون هنا هم اليهود ، وفى التعبير به إيماء إلى أن ما صدر منهم من سوء الأدب فى خطابه صلى الله عليه وسلم كفر لا شك فيه ، لأن من يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شرير فقد أنكر نبوته وأنه موحى إليه من قبل ربه ، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحق العذاب الأليم .

قال الأستاذ الإمام : إن هذا التأديب ليس خاصاً بمن كان فى عصره من المؤمنين بل يعم من جاء بعدهم أيضاً ، فهذا كتاب الله الذى كان يتلوه عليهم وكان يجب عليهم الاستماع له والإنصات لتدبره — هو الذى يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء ، وهو كلام الله الذى به كان الرسول رسولا تجب طاعته والاهتداء بهديه — فما هذا الأدب الذى يقابله به الأكثرون ؟ إنهم يلفطون فى مجلس القرآن فلا يستمعون ولا ينصتون ، ومن أنصت واستمع فأنما ينصت طرباً بالصوت واستلذاً بتوقع نغمات القارئ ، وإنهم ليقولون فى استحسان ذلك واستجادته ما يقولون فى مجالس الفناء ويبتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة كما يفعلون عند سماع الفناء بلا فرق ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه إلا ما يروونه مدعاة لسرورهم فى مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عما فيها من العبرة وإعلاء شأن الفضيلة ولا سيما العفة والأمانة ، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذى ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها ؟ « أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » اهـ .

(ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) أى أن الذين عرفتم شأنهم مع أنبيائهم من أهل الكتاب حسدة لكم لا يودون أن ينزل عليكم خير من ربكم ، والكتاب الكريم أعظم الخيرات فهو الهداية العظمى ، به جمع الله شملكم ووحد شعوبكم وقبائلكم وطهر عقولكم من زيف الوثنية وأقامكم على سنن الفطرة ، وكذلك المشركون إذ يرون في نزول القرآن على طريق التتابع الوقت بعد الوقت قوة للاسلام ورسوخا لقواعده وتثبيتا لأركانه وانتشارا لهديه ، وهم يودون أن تدور عليكم الدوائر ، وينتهى أمركم وينزل دينكم من صفحة الوجود .

(والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى أن حسد الحاسد يدل على أنه ساخط على ربه معترض عليه لأنه أنعم على المحسود بما أنعم ، والله لا يضيره سخط الساخطين ، ولا يحول مجارى نعمته حسد الحاسدين ، فهو يختص من يشاء برحمته متى شاء ، وهو ذو الفضل العظيم على من اختاره للنبوة وهو صاحب الإحسان والمنة ، وكل عباده غارق في بحار نعمته ، فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً على خير أصابه وفضل أوتي من عند ربه .

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

شرح المفردات

النسخ في اللغة الإزالة يقال نسخت الشمس الظل أى أزالته ، والإنساء إذهابها من ذاكرة النبي صلى الله عليه وسلم بعد تبليغها إياه ، والولى القريب والصديق ، والنصير المعين ، والفارق بينهما أن الولى قد يضعف عن النصرة ، والنصير قد يكون أجنبياً عن ينصره ، والسؤال الاقتراح المقصود به التعمت ، وبدل وتبدل واستبدل: جعل شيئاً موضع آخر ، وضل : عدل وجار ، والسواء من كل شئ الوسط ومنه قوله « فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » والسبيل : الطريق .

المعنى الجملى

روى أن هذه الآيات نزلت حين قال المشركون أو اليهود ، ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينههم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، فقد أمر في حد الزانى بإبداء الزانين باللسان حيث قال « فَأَذْوَها » ثم غيره وأمر بإمساكهن في البيوت حيث قال « فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ » ثم غيره بقوله « فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » .

فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقول من تلقاء نفسه ، يناقض بعضه بعضاً ، ومقصدهم من ذلك الطعن في الدين ليضعفوا عزيمة من يريد الدخول فيه وينضوى تحت لوائه .

الإيضاح

(ما نسخ من آية أو ناسها نأت بخير منها أو مثلها) النسخ في لسان الشرع : بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة ، وحكمته أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة الناس ، وهى تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فإذا شرع حكم في وقت كانت الحاجة إليه ماسة ثم زالت الحاجة فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق

الوقت الآخر فيكون خيراً من الأول أو مثله في فائدته للعباد ، وما مثل ذلك إلا مثل الطيب الذي يغير الأغذية والأدوية باختلاف الأزمنة والأمزجة ، والأنبياء صلوات الله عليهم هم مصلحو النفوس يغيرون الأعمال الشرعية والأحكام الخلقية التي هي للنفوس بمثابة العقاقير والأدوية للأبدان ، فما يكون منها مصلحة في وقت قد يكون مفسدة في وقت آخر .

ومعنى الآية — ما نفيّر حكم آية أو ننسكه إلا أتينا بما هو خير منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب أو مثله فيه .

ونسخ الحكم إما أن يكون بأيسر منه في العمل كما نسخت عدة المتوفى عنها زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ، وإما بمساو له كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة ، وإما بأشق منه ويكون ثوابه أكثر كما نسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين ، ثم أقام الدليل على إمكان النسخ فقال :

(ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره من المؤمنين الذين ربما كان يؤذيهم ما كان يعترض به اليهود وغيرهم على النسخ ، وضعيف الإيمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به ، فيخشى عليه من الركون إلى الشبهة أو تدخل في قلبه الخيرة ، فجاء ذلك تثبيتاً لهم وتقوية لإيمانهم ، ببيان أن القادر على كل شيء لا يستنكر عليه نسخ الأحكام ، لأنها مما تتناولها قدرته ثم أقام دليلاً آخر فقال :

(ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) أى أن الله تعالى له ملك السموات والأرض وهما تحت قبضته والعباد أهل مملكته وطاقته ، عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيهِ ، فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام ويقرر ما شاء منها على حسب ما يرى من الفائدة .

(وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) أى ناصركم ومعينكم هو الله وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ، وليس في استطاعته أن يخلق بكم أذى .

(أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أى تريدون أن تسألوا رسولكم أن يحييكم بآيات بينات فوق ما جاءكم به فيكون مثلكم مثل اليهود الذين سألوا موسى ما لا يجوز سؤاله تبرما وتعنتا كقولهم «أرنا الله جبراً» .
 وفي هذا نصح للمسلمين أن يعملوا بما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم وينتبهوا عما نهاهم عنه ولا يطلبوا منه غير ما جاءهم به، ثم أتبع التحذير بالوعيد فقال :
 (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) أى ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة على حسب المصالح ويطلب غيرها تعنتاً وعناداً للنبي صلى الله عليه وسلم فقد اختار الكفر على الإيمان ، واستحب العمى على الهدى ، وبعد عن الحق والخير ، ومن حاد عن الحق وقع في الضلال «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ»
 وسبب نزول هذه الآية أن رافع بن خزيمة ووهب بن زيد قالا للنبي صلى الله عليه وسلم : أئتنا بكتاب من السماء نقرأه وفجر الأنهار نتبعك .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

شرح المفردات

العفو ترك العقاب على الذنب كما قال «إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً» والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه ، وهو يشمل ترك العقاب وترك اللوم والتوبيخ ، وأمر الله نصره ومعاونته .

إجمال المعنى

بعد أن نهى المؤمنين في الآيات السالفة عن الاستماع لنصح اليهود وعدم قبول آرائهم في شيء عن أمور دينهم — ذكر هنا وجه العلة في ذلك وهي أن كثيراً منهم يودون لو ترجعون كفاراً حسداً لكم ولنبئكم ، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم والكيده له بقتض ما عاهدكم عليه ، بل يحسدونكم على نعمة الإسلام ويتمنون أن تحرموا منها .

وقد كان لأهل الكتاب حيل في تشكيك المسلمين في دينهم ، فقد طلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره كي يتأسى بهم بعض ضعاف الإيمان من المسلمين ، وكانوا يلقون بعض الشبه على المؤمنين ليشككهم في دينهم .

الإيضاح

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) أى تمى كثير من اليهود والنصارى أن يصرفوكم عن توحيده الله والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويرجعوكم كفاراً كما كنتم ، حسداً لكم ، وفي هذا إشارة إلى أن النصيح الذى يشيرون به منشؤه الحسد وخبث النفوس وسوء الطوية والجود على الباطل — لا الغيرة على الحق وصرف الهمة في الدفاع عنه .

(من بعد ما تبين لهم الحق) أى من بعد أن ظهر لهم بساطع الأدلة أن محمداً على الحق بما جاء به من الآيات التى تنطبق على ما يحفظونه من بشارات كتبهم بنبي يأتى آخر الزمان .

(فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) أى فعاملوهم بأحسن الأخلاق من العفو عن مذبذبهم بترك عقابه ، والصفح عنه بترك لومه وتعنيفه حتى يأتى نصر الله لكم بمعونته وتأييده ، وقد يكون المعنى — حتى يأتى أمر الله ونصره وقد تحقق ذلك بقتل بنى قريظة

وإجلاء بنى النضير من المدينة بعد أن غدروا ونقضوا العهد بمؤالة المشركين بعد أن عفا عنهم وصفح مرات كثيرات ، وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قتلهم هم أصحاب القدرة والشوكة ، لأن الصفح لا يكون إلا من القادر ، فكأنه يقول لهم : لا تغرنكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم ، فأنتم على قتلهم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله ، ولهم العزة ما ثبتوا عليه .

ثم أكد الوعد السابق بالنصرة بقوله :

(إن الله على كل شيء قدير) أى فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى ، ويثبتكم بما أنتم عليه من الحق فتغلبوا على من يناوئكم ويظهر لكم العدوان اغترارا بكثرتة واعتزازا بقوته « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَتَقْوَىٰ عَزِيزٌ » .

ثم ذكر سبحانه بعض الوسائل التى تحقق النصر الذى وعدوا به فقال :
(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) لما فى الصلاة من توثيق عرا الإيمان ، وإعلاء الهمة ، ورفعة النفس بمنجاة الله ، وتأليف قلوب المؤمنين حين الاجتماع لأدائها ، وتعارفهم فى المساجد ، وبهذا ينمو الإيمان ، وتقوى الثقة بالله ، وتنزه النفس أن تأتى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وتكون أقوى نقاذا فى الحق ، فتكون جديرة بالنصر .
ولما فى الزكاة من توكيد الصلة بين الأغنياء والفقراء ، فتتحقق وحدة الأمة وتكون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم باقى الأعضاء بالحى والسهر .

وقد جرت سنة القرآن أن يقرن الزكاة بالصلاة ، لما فى الصلاة من إصلاح حال الفرد ، ولما فى الزكاة من إصلاح حال المجتمع ، إلى أن المال شقيق الروح ، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله سهل عليه بذل نفسه فى سبيل الله تأييدا لدينه وإعلاء لكلمته وبعد أن أبان أن الصلاة والزكاة من أسباب النصر فى الدنيا أردف هذا ببيان أنهما من أسباب السعادة فى الآخرة أيضا فقال :

(وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أى وما تعملوا من خير تجدوا جزاءه عند ربكم يوم توفى كل نفس جزاء عملها بالقسط المستقيم ، ونحو الآية قوله « مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » .

ونسب الرجود إلى العمل والذي يوجد هو جزاؤه لما للعمل من أثر في نفس العامل ، فكان الجزاء بمثابة العمل نفسه .

ثم ختم الآية بما يحث المرء على الإحسان في العمل فقال :

(إن الله بما تعملون بصير) فهو عالم بجميع أعمالكم كثيرها وقليلها ، لا يخفى عليه خافية من أمركم ، خيرا كانت أو شرا وهو مجازيكم عليها ، ولا يخفى ما في هذا من الترغيب والترهيب .

ومن مواعظ على كرم الله وجهه أنه كان إذا دخل المقبرة قال : السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة ، والحال للمقبرة ، من المؤمنين والمؤمنات — ثم قال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت ، فهذا خبر ما عندنا ، فليت شعري ما عندكم ، والذي نفسى بيده لو أن لهم في الكلام لقالوا : إن خير الزاد التقوى .

وفي الحديث الصحيح « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » — والأول يشمل بناء المساجد ومعاهد العلم والمستشفيات والملاجئ والأحباس على المعوزين والمحتاجين ، والثاني ينضوى تحته ما يخلفه الإنسان من تصنيف نافع أو تعليم للعلوم الدينية ، وقيد الولد بكونه صالحا لأن الأجر لا يحصل من غيره ، أما الوزر فلا يلحق الأب سيئة ابنه .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ

وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

شرح المفردات

الأمانى واحداها أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه ، والعرب تسمى كل ما لا حاجة عليه ولا برهان له تمنيا وغرورا وضلالا وأحلاما ، وإسلام الوجه لله هو الاقبياد والإخلاص له فى العمل بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء يقربونه إليه زلفى ، ويقال فلان ليس على شيء من كذا أى ليس على شيء منه يعتد به ويؤبه به .

إجمال المعنى

ذكر عز اسمه فى هذه الآية حالين من أحوال اليهود ، أولاها تضليل من عداهم وادعائهم أن الحق لا يعدوهم وأن النبوة مقصورة عليهم ، وثانيتهما تضليل اليهود للنصارى وتضليل النصارى لهم كذلك ، مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود .

والعبرة من هذا القصص — أنهم قد صاروا إلى حال من اتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم لا فى نفسه ولا فى غيره ، فطعنهم فى النبى صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن الإيمان به لا يثبت دعواهم فى أنه مخالف للحق ، فاليهود قد كفروا بعبسى وقد كانوا ينتظرونه ، والنصارى كفروا بموسى ورفضوا التوراة وهى حجتهم

على دينهم ، فكيف بعدئذ يعتد برأيهم في محمد صلى الله عليه وسلم وهو من غير شعبيهم وجاء بشريعة نسخت شرائعهم .

وسبب نزول الآيات أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبي صلى الله عليه وسلم وكذب بعضهم بعضاً ، فقال اليهود لبني نجران : لن يدخل الجنة إلا اليهود ، وقالت بنو نجران لليهود لن يدخل الجنة إلا النصارى — وسواء أصححت هذه الرواية أم لم تصح — فمقيدة كل من الفريقين في الآخر كذلك .

الإيضاح

(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) أى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى كذلك ، وهذه آراء الفريقين إلى يومنا هذا .

(تلك أمانيتهم) أى هذه الأمنية السالفة التى تشمل أمانى كثيرة كنجاتهم من العذاب ووقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم .

(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أى قل لكللا الفريقين هاتوا البرهان على ما تزعمون ، وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدعى ، فهو فى عرف التخاطب تكذيب له ، لأنه لا برهان لهم عليه .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا يقبل من أحد قول لا برهان عليه ، والقرآن مليء بالاستدلال على القدرة والإرادة والوحدانية بالآيات الكونية والأدلة العقلية . كقوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

(بلى) كلمة تذكر جواباً لإثبات نفى سابق ، وردا لما زعموه فهى مبطلّة لقولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » أى بلى أنه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى ، إذ رحمة الله لا تختص بشعب دون شعب ، بل كل من عمل لها وأخلص فى عمله فهو من أهلها .

(من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) أى كل من انقاد لله وأخلص فى عمله فله الجزاء على ذلك عند ربه الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا والآية ترشد إلى أن الإيمان الخالص لا يكفي وحده للنجاة ، بل لابد أن يقرن بإحسان العمل ، وقد جرت سنة القرآن إذا ذكر الإيمان أرفده بعمل الصالحات كقوله « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ اُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِيرًا » وقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ » .

(ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى أن الذين أسلموا وجوههم لله وأحسنوا العمل لا تساور نفوسهم مخاوف ولا أحزان ، كما تختلج صدور الذين أشرب قلوبهم حب الوثنية ، وأعرضوا عن الهداية ، إذ من طبيعة المؤمن أنه إذا أصابه مكروه بحث عن سببه واجتهد فى تلافيه ، فإن لم يمكنه دفعه فوض أمره إلى ربه ولم يضطرب ولم تهن له عزيمة ، علما منه بأنه قد ركن إلى القوة القادرة على دفع كل مكروه وتوكل على من بيده دفع كل محذور .

أما عابدو الأوثان والأصنام فهم فى خوف مما يستقبلهم ، وحزن مما ينزل بهم ، فاذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم داخلهم الهلع ولم يستطيعوا صبرا على البأساء ، وهم يستخذون للدجالين والمشعوذين ، ويعتقدون بسلطة غيبية لكل من يعمل عملا لا يهتدون إلى معرفة سببه .

ثم ذكر مقال كل من الفريقين فى الآخر :

(وقالت اليهود ليست النصارى على شيء) أى ليسوا على شيء من الدين يعتد به ، فهم قد كفروا بالمسيح مع أنهم يتلون التوراة التى تبشر به وتذكر من الأوصاف ما لا ينطبق إلا عليه ، ولا يزالون إلى اليوم يدعون أن المسيح المبشر به فيها لما يأت بعد ، وينتظرون ظهوره وإعادة الملك إلى شعب إسرائيل .

(وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) أى ليسوا على شيء من الدين الصحيح ومن ثم أنكروا نبوة المسيح المتبهم لشريعتهم .

(وهم يتلون الكتاب) أى قالوا ذلك وكتاب كل من الفريقين ينطق بغير ما يعتقدون ، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتى بعد موسى ، لكنهم خالفوها ولم يؤمنوا به ، والإنجيل يقول إنه (المسيح) جاء متمماً لناموس موسى لا ناقضاً له ، وهم قد نقضوه .

والخلاصة — أن دينهم واحد ترك بعضهم أوله وبعضهم آخره ولم يؤمن به كله أحد منهم ، والكتاب الذى يتلونه حجة عليهم شاهد على كذبهم .
ثم بين أنهم ليسوا ببدع فيما يقولون ، بل قبلهم أمم قالت مثل مقالتهم .
(كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) أى مثل هذا القول الذى لم يكن على برهان ، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين : لستم على شيء ، والحق وراء هذه المزاعم ، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرفه الناس حق المعرفة لما تفرقوا ولا اختلفوا فى أصوله ، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا فيه وتفرقوا طرائق قديداً .

(فإن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فهو العليم بما عليه كل فريق من حق أو باطل ، فيحق الحق ويجعل أهله فى النعيم ويبطل الباطل ويلقى أهله فى سواء الجحيم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا؟ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمُوجُهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ

وَلَدَّا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلُّ لَهُ قَائِنُونَ (١١٦) بَدِيعُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

شرح المفردات

الاستفهام هنا للإِنكار و يفيد النفي ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه كما
تقدم ، والمسجد موضع العبادة لله تعالى ، والمراد بخزى الدنيا الهوان والذل فيها ،
والوجه الجهة ، قم أى هناك ، واسع أى لا يحصر ولا يتحدد ، سبحان كلمة تفيد
التنزيه والتعجب مما يقوله أولئك الجاهلون ، والقنوت الخضوع والانقياد ، والبديع
بمعنى المبدع ، والإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مختصرة على غير مثال سابق .

إجمال المعنى

يشير سبحانه في هذه الآيات إلى ما وقع من تيطس الرومانى إذ دخل بيت
المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخربها حتى لم يبق منها حجراً على حجر،
وهدم هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يترك إلا بعض جدران مبعةرة ، وأحرق
بعض نسخ التوراة ، وكان المسيح قد أئذر اليهود بذلك ، وكان هذا بإيعاز وتحريض
من المسيحيين انتقاماً منهم إذ أخرجوهم من ديارهم ، وتحقيقاً لوعيد المسيح ، فتسللوا
لواذاً على قلوبهم حتى وصلوا إلى رومية ، فخرسوا تيطس على غزوهم في بلادهم وكان
اله هوى في ذلك ، فأجابهم إلى ما طلبوا وكان منه ما علمت .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها) أى
وأى امرئ أشد تعدياً وجراً على الله ومخالفة لأمره ، من امرئ منع من العبادة
في المساجد ، وسعى في خرابها بهدمها أو تعطيل شعائر الدين فيها ، لما في ذلك من

اتتهاك حرمة الأديان المؤدى إلى نسيان الخالق ، ونشوء المنكرات بين الناس ونشر الفساد فى الأرض .

(أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) أى أولئك المانعون ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا بحشية وخضوع ، فكيف بهم دخولها مفسدين ومخرين ، فما كانت عبادة الله إلا نافعة للبشر وما كان تركها إلا ضاراً لهم . وقد توعدهم الله على ظلمهم بقوله :

(لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) خزى الدنيا بما يعقبه الظلم من الفساد المؤدى إلى الذل والهوان ، ولا ظلم أكبر من إبطال العبادة من المساجد والسعى فى خرابها ، وقد تحقق ما أوعده الله فحل بالرومانين الخزى فى الدنيا فتقسمت دولتهم وتشتت ملكهم ولحقهم الذل والهوان على يد غيرهم من الأمم القوية الفاتحة ، وعذاب الآخرة هو ما أعد الله للفجار فى جهنم وبئس القرار .

(والله المشرق والمغرب) أى له هاتان الجهتان المعلومتان لكل أحد والمراد رب الأرض كلها ، فهو كقوله « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » .

(فأينما تولوا فثم وجه الله) أى أى مكان تستقبلونه فى صلاتكم فهناك القبلة التى يرضاها الله لكم ويأمركم بالتوجه إليها ، فأينما توجه المصلى فى صلاته فهو متوجه إلى الله لا يقصد بصلاته غيره ، والله تعالى راض عنه مقبل عليه .

والحكمة فى استقبال القبلة — أنه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، وهو بهذه الطريقة محال على الله — شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه فى عبادتهم إياه ، وجعل استقباله كاستقبال وجهه تعالى .

(إن الله واسع عليم) أى أنه تعالى لا يحصر ولا يتحدد ، فيصح أن يتوجه إليه فى كل مكان ، وهو عليم بالتوجه إليه أينما كان ، فاعبدوه حيثما كنتم ، وتوجهوا إليه أينما حلتم ، ولا تنقيدوا بالأمكنة والمعبود غير مقيد .

وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالتوجه إلى استقبال الكعبة فى الصلاة ،

وفيهما إبطال لما كان يعتقد أنه الملل السابقة من أن العبادة لا تصح إلا في الهياكل والمعابد ، وإزالة لما قد يتوهم من أن الوعيد إنما كان على إبطالها في الأماكن المخصوصة ، فأبان بها أن الوعيد إنما كان لإبطالها مطلقا ، لأن الله لا تحده الجهات ، ولا تحصره الأمكنة .

(وقالوا اتخذ الله ولداً) فقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو من بعضها ، فإن أفرادها متكافلون في كل ما يعملون وما يقولون مما يعود أثره من خير أو شر إلى الجميع .

(سبحانه) تنزيها له تعالى أن يكون له ولد ، إذ هذا الولد إما من العالم العلوى وهو السماء أو من العالم السفلى وهو الأرض ، وليس شيء منهما بمجانس له عز اسمه — إلى أن السبب المقتضى للولد هو الاحتياج إلى المعونة في الحياة والقيام مقامه بعد الموت والله منزّه عن ذلك .

(بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون) أى ليس الأمر كما زعموا ، بل جميع ما فى السموات والأرض ملك له قانت لعزته خاضع لسلطانه منقاد لإرادته ، فما وجه تخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولداً مجانسا له « إِنَّ كُلَّ مَنْ فى السمواتِ والأرضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » .

نعم إن الله يختص من يشاء من عباده بما شاء من الفضل كالأنبياء صلوات الله عليهم ، ولكن هذا لا يرتقى بالخلق إلى أن يصل إلى مرتبة الخالق .

(بديع السموات والأرض) أى موجدتهما اختراعا وابتكاراً لا على مثال سابق ، وإذا كان هو المبدع لهما والموجد لجميع من فيهما فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما على أنه مجانس له ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى وإذا أراد إحداث أمر وإيجاده

فإنما يأمره أن يكون موجودا فيكون، والكلام تمثيل وتشبيه لتعلق إرادته بإيجاد الشيء فيعقبه وجوده ، بأمر يصدر فيعقبه الامتثال .

والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية عبر عنهما بما يقر بهما من الفهم وهو أن يقول للشيء كن فيكون .

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ : لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ يَبَيِّنُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى ، وَلَنْ أَتَّبِعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)

شرح المفردات

لولا كلمة لحض الفاعل على الفعل وطلبه منه ، والآية الحجة والبرهان ، والتشابه المتماثل ، واليقين هو العلم بالدليل والبرهان ، والحق هو الشيء الثابت المتحقق الذي لا شك فيه .

المعنى الجمل

كان الكلام فيما سلف في الرد على من أنكر الوحداية واتخذ الله شريكا — والكلام هنا فيمن أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وطعن في الآيات التي جاء بها وتجننى بطلب آيات أخرى تمننا وعنادا كما جاء في نحو قوله حكاية عنهم

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا » وقوله « لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » .

الإيضاح

(وقال الذين لا يعلمون) من المشركين ، لأنه لا كتاب لهم ولا هم أتباع نبي من الأنبياء حتى يتجلى لهم ما يليق بمقام الألوهية ، وما يصح أن يعطاه الأنبياء من الآيات .

(لولا يكلمنا الله) أى هلا يكلمنا الله بأنك رسوله حقا كما يكلم الملائكة ، أو يرسل إلينا ملكا فيخبرنا بذلك ، كما كلمك على هذا الوجه مع أنك بشر مثلنا . وما مقصدهم من هذا إلا العناد والاستكبار وبيان أنه ليس بأحسن منهم حالا ، فلم يختص بهذا الفضل من بيننا ؟ .

(أو تأتينا آية) أى أو تأتينا ببرهان على صدقك فى دعواك النبوة ، ومرادهم بذلك ما حكاه الله عنهم بنحو قوله « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » الآية . وهذا منهم جحود لأن يكون ما أوتيه من القرآن وغيره من المعجزات آيات كافيات فى إثبات ما ادعى من النبوة .

(كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) أى ومثل هذه الأسئلة التى يراد بها التعمنت لا جلاء الحقيقة ، قد قالها من قبلهم من الأمم الماضية ، فقد قال اليهود لموسى : « أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً » « وَلَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ » — إلى نحو ذلك وقالت النصارى : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » ، فهذه أقوال صدرت عنهم للتشهى واتباع الهوى تعنتا وعنادا لا للوصول إلى كشف غامض وجلاء حقيقة كما قال تعالى « وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

ثم ذكر السبب في اتحاد مقالهم ومقال من سبقهم فقال :

(تشابهت قلوبهم) أى تماثلت قلوب هؤلاء وقلوب من قبلهم في العصى والقسوة والعناد ، والألسنة ترجان القلوب ، والقلب إذا استحکم فيه الكفر والعصى لا يجرى على لسان صاحبه إلا ما ينهى بالتباعد عن الإيمان من معاذير لا تجدى وتعللات لا تفيد .

فالحق واحد ، ومخالفته هى الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه ، وآثاره تتشابه حين تصدر عن الضالين حتى كأنهم متواصون به فيما بينهم كما قال تعالى « أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » .

(قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى أننا لم نتركك بلا آية ، بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالاً للريب لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان ، ولديهم الاستعداد للعلم واليقين ، ولن يكون هذا إلا لمن صفت نفوسهم وسلموا من العناد والمكابرة اللذين يمنعان من وصول نور الحق إلى القلوب ، وقد كان كبار الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم فيما لم يظهر لهم دليله ، لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالبيننة . (إنا أرسلناك بالحق) أى إنا أرسلناك بالشىء الثابت الذى لا تفضل فيه الأوهام بل يسعد من أخذه به ويثلج قلبه بروح اليقين ، وهذا شامل للعقائد المطابقة للواقع وللشرائع التى توصل صاحبها إلى سعادة المعاش والمعاد .

(بشيراً ونذيراً) أى لتبشر من أطاع وتندر من عصى ، لا لتجبر على الإيمان ، فلا عليك إن أصروا على الكفر والعناد « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » . (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) أى فلا يضرنك تكذيب المكذبين الذين يساقون بمجودهم إلى الجحيم ، فأنت لم تبعث ملزماً ولا جباراً ، فتكون مقصراً إن لم يؤمنوا ، بل بعثت معاماً وهادياً بالدعوة وحسن الأسوة ، كما قال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لئلا يضيق صدره كما قال تعالى :
 « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) الطريقة المشروعة للعباد تسمى ملة ، لأن الأنبياء أمثلوها وكتبوها لأمتهم ، وتسمى ديناً ، لأن العباد انقادوا لمن سنّها ، وتسمى شريعة لأنها مورد المتعطين إلى ثواب الله ورحمته .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به ، ومن ثم كبر عليه إعراضهم عن إجابة دعوته ، وإلحافهم في مجاهدته ، مع موافقتهم له في أصل دينهم من توحيد الله وتقويم ما اعوج من الفطرة الإنسانية بما طرأ عليها من التقاليد الفاسدة بالمعارف الدينية الصالحة إلى أقصى حد مستطاع .

وفي الآية تبيّن له عليه السلام من طمعه في إسلامهم ، إذ علق رضاهم عنه بما هو مستحيل أن يكون وهو اتباع ملتهم والدخول في دينهم ، لأنهم اتخذوا الدين جنسية لا يرضون عن أحد إلا إذا دخل في حظيرتها وانضوى تحت لوائها .

وكلامهم هذا يتضمن أن ملتهم هي الهدى لا ما سواها ، ومن ثم رد الله عليهم بقوله أمراً نبهه :

(قل إن هدى الله هو الهدى) أى أن الهدى هو ما أنزله الله على أنبيائه ، لا ما أضافه إليه اليهود والنصارى بالهوى والتشهى ، ففرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل شيعية تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء .

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم) أى ولئن اتبعت ما أضافوه إلى دينهم وجعلوه أصلاً من أصول شريعتهم بعد ما حصل لك من اليقين والطمأنينة بالوحي الإلهي الذي نزل عليك ، ومنه علمت أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل ، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به .

(مالك من الله من ولي ولا نصير) أى فالله لا ينصرك ولا يساعدك على ذلك ،

إذ أن اتباع الهوى لا يكون طريقاً موصلاً إلى الهدى ، وإذا لم ينصرك الله ويتولى
شئونك فمن ذا الذى ينصرك من بعده ؟ .

وهذا الإنذار الشديد والوعيد والتهديد وإن كان موجهاً إلى النبي صلى الله
عليه وسلم الذى عصمه الله من الزيغ والزلل وأينه بالكرامة ، هو فى الحقيقة خطاب
للناس كافة فى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى العرف فى خطاب الملوك
أن يقال للملك : إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا ، ويراد إذا فعلته دولتك
أو أمتك .

والكلام هنا جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتى بعده أن يصدع بالحق
وينتصر له ولا يبالى بمن خالفه مهما قوى حزبه واشتد أمره ، فمن عرف الحق وعرف
أن الله ولي أمره وناصره لا يخاف فى تأييده لوم اللاتمين ولا إنكار المعاندين .

الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ أُولَئِكَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ،
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا
نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا
يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا
شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)

المعنى الجملى

هذه الآيات سقت استدراكاً على ما قبلها ، فإن ما تقدم كان تيمناً للنبي
صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من إيمان أهل الكتاب وسلب ما كان يخالج نفوسهم
من الرجاء ، وهنا أرشد إلى أن فريقاً منهم يرجى إيمانهم وهم الذين يتدبرون كتابهم
 ويميزون بين الحق والباطل ويفهمون أسرار الدين ويعلمون أن ما جئت به هو الحق

الذى يتفق مع مصالح البشر، فهو الذى يهذب نفوسهم، ويصفي أرواحهم، وينظم معاشهم، وبه سعادتهم فى الدنيا والآخرة.

وبعد أن أقام عليهم الحجة دعاهم وناداهم وطلب إليهم أن يتركوا الغرور للمانع لهم من الإيمان، إذ لا ينبغي لمن كرمه الله وفضله على غيره من الشعوب أن يكون حظه من كتابه كحظ الحمار يحمل أسفارا.

الإيضاح

(الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) أى ومن أهل الكتاب طائفة تقرأ التوراة قراءة تأخذ بمجامع قلوبهم وتدخل فى شغاف أفئدتهم، فيراعون ضبط لفظها ويتدبرون معناها وينتقون أسرارها وحكمها، أولئك هم الذين يقولون أن ما جئت به هو الحق، فيؤمنون به ويبتدون بهديه إلى سواء السبيل كعبد الله بن سلام وأضرابه ممن آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم.

(ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) أى ومن يكفر بما أنزل إليك بعد أن تبين له أنه الحق من الرؤساء العالدين والجهال المقلدين (وكثير ما هم) فأولئك هم الذين خسروا سعادة الدنيا والجد والسيادة التى يعطيها الله من ينصر دينه كما قال تعالى: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» وخسروا نعيم الآخرة وحق عليهم العذاب الذى أعده الله للكافرين.

وكفرانهم به آت إما بتحريف كتابهم المبشر به حتى لا تنطبق البشارة عليه، ليوافق أهواءهم، وإما بإهماله اكتفاء بقول علمائهم الذين أضافوا إلى التوراة ما شاءوا ليشتروا به ثمنا قليلا.

وفى الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه، لاحظ لهم من الإيمان، لأنهم لا يفقهون هداية الله فيه، ولا تصل العظة إلى أفئدتهم بتلاوته. وفى هذا عبرة لنا كما قال: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ»

فينبغي أن يكون ذلك حافزا لنا في تدبر القرآن وفهمه لا قراءته لمجرد التلاوة كما قال تعالى : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » وقال : « لِيَتَذَكَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

ولكن وأسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شيئا فشيئا وباعا فباعا ، والقرآن حجة عليها كما جاء في الحديث « والقرآن حجة لك أو عليك » .

ومن يتله وهو معرض عن تدبره والتأمل في العبرة منه يكن كالمستهزئ بربه ، وما مثله إلا مثل من يرسل كتابا إلى آخر لغرض خاص فيقرؤه المرسل إليه مثنى وثلاث ورباع ويترجم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ، أيرضى المرسل بمثل هذا ويكتفى به عن إجابة طلبه أم يعدده استهزاء به ؟ فعلى المؤمن في كل زمان ومكان أن يتلو القرآن بالتدبر والفهم والعمل بما فيه ، فإن كان أميا أو أعجميا فإنه ينبغي أن يطلب من أهل الذكر أن يفهموه معناه ويشرحوا له مغزاه .

(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) هذا عظة لليهود الذين كانوا في عصر التنزيل ، وتذكير لهم بما سلف من نعمة الله على آبائهم بإنقاذهم من أيدي عدوهم وإنزاله المن والسلوى عليهم وتمكينه لهم في البلاد بعد أن كانوا أذلاء مقهورين ، وإرساله الرسل منهم وتفضيلهم على غيرهم ممن كانوا بين ظهرانيهم ، حين كانوا مطيعين للرسل مصدقين لما جاءهم من عند ربهم - حتى يتركوا التمادي في النفي والضلال ويشوبوا إلى رشدهم .

ومن أجل ما أنعم به عليهم التوراة التي أنزلت عليهم ، وذكرها يكون شكرها ، وشكرها يكون بالإيمان بجميع ما جاء فيها ، ومن جملته وصف النبي صلى الله عليه وسلم فهو البشر به فيها .

(واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا) تقول جزي عنى هذا الأمر يجزى

كما تقول قضى يقضى ، زنة ومعنى ، أى واتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدلين كتابى ،
 لمخرفين له عن وجهه ، المكذبين برسولى محمد صلى الله عليه وسلم — عذاب يوم لا تقضى
 به نفس عن نفس شيئا من الحقوق التى لزمتها ، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى ،
 ولا تدفع عنها شيئا كما ورد فى الصحيحين « يا فاطمة بنت محمد سلىنى من مالى
 ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

(ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) العدل الفدية أى لا يؤخذ من نفس
 فدية تنجوها من النار ، إذ هى لا تجد ذلك لتفتدى به ، ولا يشفع فيها وجب عليها
 من حق شافع ، وقد كانوا يعتقدون بالكفريات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه ، وبشفاعة
 أنبيائهم لهم ، فأخبرهم الله أنه لا يقوم مقام الاهتداء به شىء آخر .

(ولا هم ينصرون) أى أنه لا يأتهم ناصر ينصرهم فيمنع عذاب الله عنهم
 إذا نزل بهم .

وهذا ترهيب لمن سلفت عظمتهم فى الآية قبلها .

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
 إِمَامًا . قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) .

شرح المفردات

الابتلاء: الاختبار أى معرفة حال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه فعله أو تركه،
 والكلمات واحدها كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الكلام المفيد والمراد هنا معناها
 من أمر ونهى ، وأتمهن أى قام بهن خير قيام وأداهن أحسن التأدية بلا تفريط
 ولا توان ، وإماما أى رسولا .

المعنى الجملى

بعد أن حاج سبحانه أهل الكتاب ويّين كفرهم بالنبي الذى كانوا ينتظرونه لبشارة كتبهم به ، ذكر هنا الأساس الذى بنى عليه الإسلام والنسب الذى يمت به ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب ، وهو ملة إبراهيم ونسبه ، فلا فضل إذا لليهود على العرب بأنهم يمتون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم ، إذ النسب واحد والملة واحدة .

فالقرآن حاج أهل الكتاب الذين جاء لإصلاح دينهم بما أدخلوه عليه من تحريف لبعضه ونسيان لبعضه الآخر ، وأثبت التوحيد والتعزية لله تعالى ، وحاج أهل الشرك والوثنية التى جاء لمحوها ، تارة بالبراهين العقلية وتارة بالأدلة الكونية فى كثير من السور ولا سيما السور المسكية .

الإيضاح

(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) أى واذا كر لتقومك المشركين وغيرهم حين اختبر إبراهيم ربه بعض الأوامر والنواهي عليه ، فأداها خير الأداء ، وأتى بها على وجه الكمال كما قال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

والمراد من ذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من الحوادث ، لأن الوقت محتو عليها ، فإذا استحضرت كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا .

والقرآن الكريم لم يعين الكلمات ، ومن ثم اختلفوا فيها فقليل هى مناسك الحج ، وقيل إنها السكواك والشمس والقمر التى رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى ، والعرب التى خطبت به كانت تعرف المراد منها .

(قال إني جاعلك للناس إماما) أى قال إني جاعلك للناس رسولا يؤتم بك ويقتدى بهديك إلى يوم القيامة ، فدعا الناس إلى الخيرية السمحة وهى الإيمان بالله

وتوحيده والبراءة من الشرك ، وما زال هذا جاريا فى ذريته ، فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولأجل هذا وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم .

(قال ومن ذريتي) أى قال واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم ، وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة ، فتمنى لذريته الخير فى أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم ، ولا غرو فالإنسان يرجو أن يكون ابنه أحسن منه فى جميع ذلك .

(قال لا ينال عهدي الظالمين) أى قال أحببتك إلى ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن عهدي بالإمامة لا يناله الظالمون ، إذ هم لا يصلحون أن يكونوا قدوة للناس .

وفى ذكر الظلم مانعا من الإمامة تنفير لذرية إبراهيم منه وتبغيض لهم فيه ليتحاموه وينشئوا أولادهم على كراهته ، كيلا يقعوا فيه ويحرموا من هذا المنصب العظيم الذى هو أعلى المناصب وأشرفها ، كما هو تنفير من الظالمين وعدم مخالطتهم .

فالإمامة الصالحة لا تكون إلا لذوى النفوس الفاضلة التى تسوق صاحبها إلى خير العمل وتزعه عن الشرور والآثام ، ولا حظ للظالمين فى شىء من هذا .

والخلاصة — أن الإمامة والنبوة لا ينالها من دنس نفسه وفسادها بالظلم وقبيح الخلال ، وإنما ينالها من شرفت خلاله وكملت أخلاقه وصفت نفسه ، لأن أهم أعمال الإمام رفع الظلم والفساد حتى ينتظم العمران وتسود السكينة بين الناس .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا . وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى . وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ . قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ
وَيَنْسِفُ الْمَصِيرُ (١٢٦) .

شرح المفردات

البيت غلب استعماله في بيت الله الحرام بمكة ، مثابة أى مرجعا يشوب إليه
هؤلاء الزوار وأمثالهم ، وأمنّا أى موضع أمن ، ومقام إبراهيم هو الحجر الذى كان
يقوم عليه حين بناء الكعبة ، والمصلّى موضع الصلاة أى الدعاء والثناء على الله تعالى
وعهد إليه بكذا إذا وصاه به ، والثمرات المأكولات مما يخرج من الأرض والشجر ،
والاضطرار الإكراه يقال اضطررت فلانا إلى كذا أى أُلجأت به وحملته عليه .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه العرب في هذه الآيات بنعم أسبغها عليهم ومنن قائدها جيدهم ،
وهي جعل البيت الحرام مرجعا للناس يقصدونه ثم يشوبون إليه ، وجعله مأمنّا لهم
في هذه البلاد بلاد الخواف التي يتخطف الناس فيها من كل جانب ، ودعوة إبراهيم
لبيت وأهله المؤمنين ، وفي التذكير بهذا فائدة في تقرير دعوة النبي صلى الله عليه وسلم
وأنها مبنية على أصول ملة إبراهيم الذي يحترمه العرب جميعا .

الإيضاح

(وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) أى واذكروا حين أن جعلنا البيت
الحرام مرجعا للناس يشوبون إليه للعبادة ويقصدونه لأداء المناسك فيه ، وجعلناه أمنا
لاحترام الناس له وتعظيمهم إياه بعدم سفك دم فيه ، حتى كان يرى الرجل قاتل أبيه
في الحرم فلا يتعرض له بسوء ، ونحو الآية قوله في سورة العنكبوت : « أَوْ لَمْ يَرَوْا
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ؟ » .

(واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى) أى وقلنا لهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى ، وفائدة ذكر هذا الأمر أن يستحضر السامع أو التالى المأمورين وكأن الأمر يوجه إليهم ، ليقع فى نفوس المخاطبين به أن الأمر يتناولهم وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم فى عهد أبيهم إبراهيم ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ له ، فنحن مأمورون بالدعاء فى مقام إبراهيم ، كما أمر به من كان فى عصره من المؤمنين . (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والماكين والركع السجود) أى ووصينا إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من كل رجس معنوى كالشرك بالله وعبادة الأصنام ، أو رجس حسى كاللغو والرفث والتنازع فيه ، حين أداء العبادات كالطواف به والسعى بين الصفا والمروة والمكوف فيه والركوع والسجود .

وفى الآية إيماء إلى أن إبراهيم كان مأمورا هو ومن بعده بهذه العبادات ، ولكن لا دليل على معرفة الطريق التى كانوا يؤدونها بها ، وسماه الله بيته لأنه جعله معبدا للعبادة الصحيحة ، وأمر المصلين بأن يتوجهوا فى عبادتهم إليه ، والحكمة فى ذلك أن الخلق فى حاجة إلى التوجه إلى خالقهم لشكره والثناء عليه والتوسل إليه لاستمداد رحمته ومعونته ، وهم يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبى لا يتقيد بمكان ولا ينحصر فى جهة ، فعين لهم مكانا نسبه إليه رمزا إلى أن ذاته المقدسة تحضره ، والحضور الحقيقى محال عليه ، فالمراد أن رحمته الإلهية تحضره ، ومن ثم كان التوجه إلى هذا المكان كالتوجه إلى تلك الذات العلية لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا .

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا) أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة ، وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمنا فى نفسه من الجبابة وغيرهم أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وزلزال وغرق ونحو ذلك مما ينبئ عن سخط الله ومثلاته التى تصيب سائر البلاد .

وقد استجاب الله دعاءه فلم يقصده أحد بسوء إلا قصم ظهره ، ومن تعدى عليه لم يطل زمن تعديه ، بل يكون تعديا عارضا ثم يزول .

(وازرق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) أى وازرق أهله من أنواع الثمار إما بزرقها بالقرب منه ، وإما بأن تيجي إليه من الأقطار الشاسعة ، وقد حصل كلاهما استجابة لدعوة إبراهيم كما هو مشاهد ، وقد جاء في سورة القصص « أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَنَّبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » .

وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين ، ولكن الله تعالى لواسع رحمته جعل رزق الدنيا عاما للمؤمنين والكافرين « كَلَّا مُدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » ولكن تمتيع الكافرين قصير محدود بذلك العمر القصير ، ثم إلى النار وبئس المصير وهذا ما بينه الله بقوله :

(قال ومن كفر فأمته قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) أى قال بإبراهيم قد أجبت دعوتك ورزقت مؤمنى أهل هذا البلد من الثمرات ، ورزقت كفارهم أيضا وأمتهم بهذا الرزق أمدا قليلا وهو مدة وجودهم في الدنيا ، ثم أسوقهم إلى عذاب النار سواضا اضطراريا لا اختيار لهم فيه ولا يعلمون أن غملم ينتهى بهم إليه .

ذلك أن أعمال البشر التى تقع باختيارهم ، لها آثار وغايات اضطرارية تنتهى بهم إليها وتكون نتيجة لها على حسب ما وضعه الله فى نظام الكون من وجود المسببات عقب وجود أسبابها ، فالإسراف فى الشهوات يفضى إلى بعض الأمراض فى الدنيا ، كذلك الكفار والفساق مختارون فى كفرهم وفسوقهم ، وستكون نتيجة ذلك سوقهم إلى عذاب النار بمقتضى السنن الموضوعة .

وكل أعمال الإنسان النفسية والبدنية لها الأثر الذى يفضى بصاحبها إلى السعادة أو الشقاء ، وهى أعمال كسبية اختيارية ، فالإنسان متمكن من اختيار الحق

وترك الباطل وترك الخبيث وفعل الطيب بما أعطاه الله من العقل وبما نزل عليه من الوحي ، فإذا حاد عن ذلك يكون قد ظلم نفسه وعرضها للعذاب والشقاء بأعماله التي مبدؤها كسبي وأثرها اضطراري .

وهذه السنن بقضاء الله وتقديره ، ومن ثم يصح أن يقال إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وأجأه إليه ، وجعل الأرواح المذنسة بالأخلاق الذميمة أو بالعقائد الفاسدة محل سخطه وموضع انتقامه في الآخرة ، كما جعل أصحاب الأمراض القذرة عرضة للأمراض في الدنيا .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

شرح المفردات

القواعد واحدها قاعدة وهي ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من الساقات (طاقات البناء) ورفعها إعلاء البناء عليها ، وتقبل الله العمل قبله ورضى به ، مسلمين أى متقادين لك يقال أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد ، والأمة الجماعة ، والمناسك واحدها منسك (بفتح السين) من النسك وهو غاية الخضوع والعبادة وشاع استعماله في عبادة الحج خاصة ، كما شاع استعمال المناسك في معالم الحج وأعماله ، وتاب العبد إلى ربه إذا رجع إليه ، لأن اقتراف الذنب إعراض عن الله وعن موجبات رضوانه ، وتاب الله على العبد رحمه وعطف عليه ، والكتاب القرآن ،

والحكمة أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة ، قال ابن دريد : كل كلمة وعظمتك أودعتك إلى مكreme أو نهتت عن قبيح فهي حكمة ، ويزكيهم أى يطهر نفوسهم من دنس الشرك وضروب المعاصي ، العزيز أى القوى الغالب ، الحكيم أى الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه العرب بما أنعم عليهم من بناء البيت وجعله مثابة للناس وأمنا ، وبدعاء إبراهيم عليه السلام لقاطنى هذا البلد الحرام واستجابة الله دعاءه ، إذ جعله بلداً آمناً تجبى إليه الثمرات من شاسع الأقطار ليتمتع بها أهله ، وعهده إلى إبراهيم وإسماعيل بأن يظهرآ بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود ، تنبيهاً لهم إلى أنه لا ينبغي أن يعبد فيه غيره ، فيجب تنزيهه عن الأصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة .

انتقل بهم إلى التذكير بأن الذى بنى البيت هو أبوه إبراهيم بمعونة ابنه إسماعيل ، ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذى ينتمون إليه ويفخرون به ، وقد كانت قرىش تنسب إلى إبراهيم وإسماعيل وتدعى أنها على ملة إبراهيم وسائر العرب فى ذلك تبع لقرىش .

الإيضاح

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) أى واذكروا إذ يرفع إبراهيم قواعد البيت وأساسه ، وهذا نص فى أنهما هما اللذان ببناء عبادة الله فى تلك البلاد الوثنية ، وجعلاه موضعا لضروب من العبادة التى لا تكون فى غيره ، وذلك هو مصدر شرفه لا يكون أحجاره تفضل سائر الأحجار ولا يكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا بأنه نزل من السماء ، فكل ما روى بصدد هذا فهو من الإسرائيليات

التي لا يعول عليها ولا ينبغي تصديقها ، ولا يقبلها العلماء الذين يفقهون أسرار الدين ويفهمون مراميه ، ومن ثم قال عمر بن الخطاب عند استلام الحجر الأسود « أما والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك ، ثم دنا فقبله » رواه أحمد والبخارى ومسلم .

وفى هذا الأثر إيماء إلى أن الحجر لا مزية له فى ذاته ، بل هو كسائر الأحجار وإنما استلامه أمر تعبدي كاستقبال الكعبة فى الصلاة ، وجعل التوجه إليها توجها إلى الله الذى لا يحده مكان ولا تحصره جهة .

(ربنا تقبل منا) أى أن إبراهيم وإسماعيل كانا يقولان فى دعائهما وهما يرفعان قواعد البيت : « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا » .

(إنك أنت السميع العليم) أى ربنا أنت السميع لدعائنا ، العليم بنياتنا فى جميع أعمالنا .

وفى الآية إشارة إلى أن كل مأمور بعبادة إذا فرغ منها وأداها كما أمر وبذل أقصى الوسع فى ذلك — فعليه أن يتضرع إلى الله ويبتهل ليقبل منه ما عمل ولا يردده خائبا ولا يضيع سعيه سدى ، كما أنه لا ينبغي أن يحزم بأن عبادته متقبلة ، ولولا ذلك لما كان لهذا التضرع فائدة .

(ربنا واجعلنا مسلمين لك) أى ربنا واجعلنا مخلصين لك فى الاعتقاد بآلا نتوجه بقلوبنا إلا إليك ، ولا نستعين بأحد إلا بك ، وفى العمل بآلا نقصد بعملنا إلا مرضاتك ، لا إتباع الهوى ولا إرضاء الشهوة .

(ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) أى واجعل من ذريتنا جماعة مخصصة لك ، ليستمر الإسلام لك بقوة الأمة وتعاون الجماعة ، وقد أجاب الله دعاءها وجعل فى ذريتهما الأمة الإسلامية وبعث فيها خاتم النبيين .

ومما سلف تعلم أن المزد بالإسلام الاتقياد والخضوع لخالق السموات والأرض ، وليس المراد منه الأمة الإسلامية خاصة حتى يكون كل من يولد فيها ويلقب بهذه

اللقب ينطبق عليه اسم الإسلام الذي نطق به القرآن ويكون من الذين تنالهم دعوة إبراهيم صلوات الله عليه .

(وأرنا مناسكنا) أى عرفنا مواضع نسكنها أى أفعال الحج كالمواقيت التي يكون منها الإحرام ، وموضع الوقوف بعرفة ، وموضع الطواف إلى نحو ذلك من أفعاله وأقواله .
(وتب علينا) أى وقفنا للتوبة لتتوب ، ونرجع إليك من كل عمل يشغلنا عنك ، وهذا نظير قوله تعالى « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » .

وهذا منهما إرشاد لدريتهم وتعليم منهما لهم بأن البيت وما يتبعه من المناسك والمواقف أمكنة للتخلص من الذنوب وطلب الرحمة من الله .

(إنا أنك أنت التواب الرحيم) أى أنت وحدك كثير التوبة على عبادك بتوفيقهم لحسن العمل وقبول ذلك منهم ، الرحيم بالتائبين المنجى لهم من غداك وسخطك .
(ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم) أى أرسل في الأمة للمسلمة لك رسولا من أنفسهم ليكون أشفق عليهم ويكونوا أعز به وأقرب لإجابة دعوته ، إذ أنهم يكونون قد خبروه وعرفوا منشأه ودرسوا فاضل أخلاقه من صدق وأمانة وعفة ونحو ذلك مما هو شرط في صحة نبوة النبي .

وقد أجاب الله دعوته وأرسل خاتم النبيين محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا منهم ومن ثم روى الإمام أحمد قوله صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى » .

(يتلو عليهم آياتك) أى يقرأ عليهم ما توحى إليه من الآيات التي تنزلها عليه ، متضمنة تفصيل الآيات الكونية الدالة على وحدانيتك ومشتعلة على إمكان البعث والجزاء بالثواب على صالح الأعمال والعقاب على سيئها ، فيكون في ذلك عبرة لمن هداه الله ووقفه للخير والسعادة .

(ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى ويعلمهم القرآن وأسرار الشريعة ومقاصدها بسيرته بين المسلمين فيكون قدوة لهم في أقواله وأفعاله .

(ويزكيهم) أى يظهر نفوسهم من الشرك وضروب المعاصى التى تفسدها وتفسد الأخلاق وتقوض نظم المجتمع ، ويعودها الأعمال الحسنة التى تطبع فيها ملكات الخير التى ترضى المولى جل وعلا .

(إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أى أنت القوى الذى لا يغلب ولا ينال بضم من توكل عليك ، الحكيم فى أفعالك فى عبادك ، فلا تفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

وقد ختم إبراهيم دعواته بالثناء على ربه وذكر له من الأوصاف ما يشا كل مطالبه ، فوصفه بأنه العزيز الذى لا يرد له أمر ، وأنه الحكيم الذى لا يعقب لحكمه ، فمن الهين عليه أن يجيبه إلى ما طلب مما هو متنافر مع طباع العرب ، بعيد من معاشيهم وأحوالهم ، فهم بعيدون عن ورود مناهل العلم ، وفيهم خشونة فى الطباع ، وغلظ فى الأكباد ، ليس لديهم استعداد لحضارة ولا مدنية ، وقد أجاب الله دعاءه وكون منهم أمة كانت خير الأمم سادت العالم وملكت المشارق والمغرب ردا من الزمان وكان فيها رجال حفظ لهم التاريخ صادق بلائهم وعظيم سياستهم للشعوب التى انضوت تحت لوائهم ، بما لم تجارهم فيه أرقى الأمم مدنية فى عصرنا ، عصر الرقى والحضارة .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

شرح المفردات

رغب في الشيء أحبه ورغب عنه كرهه ، وسفه نفسه أذلها واحتقرها ،
واصطفيناه أى اخترناه وأصل الاصطفاء أخذ صفوة الشيء وهى خالصة ، أسلم
أى أخلص لى العبادة ، والتوصية إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول
أو فعل على خبة التفضل والإحسان فى أمر دينى أو دنيوى ، مسلمون أى مخلصون
بالتوحيد ، والشهداء واحد هم شهيد أى حاضر ، وحضور الموت حضور أماراته
وأسابه وقرب الخروج من الدنيا ، والأمة الجماعة ، وخلت مضت وذهبت ، لها
ما كسبت أى ما عملت ، ولكم ما كسبتم أى فأتتم مجزيون بأعمالكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتتم ، وأنه عهد إليه ببناء
البيت وتطهيره للعبادة ، فصعد بما أمر ، أردف ذلك بذكر أن ملة إبراهيم التى كان
يدعو إليها وهى التوحيد وإسلام القلب لله والإخلاص له فى العمل ، لا ينبغي التحول
عنها ولا يرضى عاقل أن يتركها إلا إذا ذل نفسه واحتقرها ، وبها وصى يعقوب بنبيه ،
ووصى بها من قبله إبراهيم بنبيه ، ثم رد على شبهة لليهود إذ قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم
إن يعقوب كان يهوديا ، وكذبهم بمقال لبنيه له حين موته : نعبد إلهك وإله آبائك
الإله الواحد .

وقد روى فى سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة
ومهاجرا إلى الإسلام ، قال لهما قد علمتا أن الله تعالى قال فى التوراة : إبنى باعث من
ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد ، من آمن به فقد اهتدى ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ،
فأسلم سلمة وأبى مهاجر .

الإيضاح

(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أى إن ملتكم هى ملة أبيكم إبراهيم الذى إليه تنتسبون ، وبه تفخرون ، فكيف ترغبون عنها وتحقرون عقولكم وتدعون أولياء من دون الله لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً .

(ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى ولقد اجتبيناه من بين خلقنا ، وجعلنا فى ذريته أئمة يهدون بأمرنا ، وجعلناه فى الآخرة من المشهود لهم بالخير والصلاح وإرشاد الناس للعمل بهذه الملة .

ولا شك أن ملة هذا شأنها ، وبها كانت له المسكنة عند ربه ، لا يرغب عنها إلا سفیه يعرض عن التأمل فى ملكوت السموات والأرض ورؤية الآثار الكونية والنفسية الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته .

وفى الآية بشارة لإبراهيم بصلاح حاله فى الآخرة وعدة له بذلك .

(إذ قال له ربه أسلم) أى اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من الآيات ونصب له من الأدلة على وحدانيته ، فلبى الدعوة .

(قال أسلمت لرب العالمين) أى قال أخلصت دينى لله الذى فطر الخلق جميعاً ، ونحو هذا قوله : « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وقد نشأ إبراهيم فى قوم عبدة أصنام وكواكب ، فأثار الله بصيرته وألهمه الحق والصواب فأدرك أن للعالم رباً واحداً يديره ويتصرف فى شئونه وإليه مصيره ، وحاج قومه فى ذلك وبهرهم بحجته فقال : « أَتُحَاجُّونِى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » إلى آخر الآيات التى جاءت فى سورة الأنعام .

(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين) أى ووصى بهذه الملة التى ذكرت فى قوله : « وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ » إبراهيم أولاده

ووصى بها يعقوب من بعده أولاده أيضا ، قائلين لهم : إن الله اصطفى لكم دين الإسلام الذي لا يقبل الله سواه .

(فلا تموتن إلا وأنتن مسلمون) أى حافظوا على الإسلام لله ولا تفارقوه برهة واحدة ، فر بما تأتيتكم من أنبياءكم وأنتن على غير الدين الذى اصطفاه لكم ربكم .

وفى هذا النهى إيماء إلى أن من كان منحرفا عن الجادة لا يئاس ، بل عليه أن يبادر بالرجوع إلى الله ويعتزم بحبل الدين خيفة أن يموت وهو على غير هدى ، فالمرء مهدد فى كل آن بالموت .

دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثوانى

ثم أكد أمر الوصية وزاده تقريرا ، وأقام الحجة على أهل الكتاب فوجه إليهم الخطاب وقال :

(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) أى أكنتم يامعشر اليهود والنصارى المكذبين محمدا الجاحدين نبوته - شهودا حين حضر يعقوب الموت ، فقدعون أنه كان يهوديا أو نصرانيا ، فقد روى أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية ؟ .

وخلاصة ذلك — أنتن لم تحضروا ذلك فلا تدعوا عليه الأباطيل وتنسبوه إلى اليهودية أو النصرانية ، فإني ما أرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية المسلمة ، وبها وصوا بنيه وعهدوا إلى أولادهم من بعدهم .

(إذ قال لبيه ما تعبدون من بعدى) أى أكنتم شهداء حين قال لبيه : أى معبود تعبدون من بعدى ؟ ومراده من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بثباتهم على الإسلام والتوحيد ، وأن يكون مقصدهم فى جميع أعمالهم وجه الله ومرضاته ، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان كما قال فى دعائه « وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » . (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) أى قالوا : نعبد الإله الذى قامت الأدلة العقلية والحسية على وجوده

ووجوب عبادته لا نشرك به سواء ، ونحن له متقادون خاضعون معترفون له بالعبودية متوجهون إليه عند الملمات ، وقد كانوا فى عصر فشت فيه عبادة الأصنام والكواكب والحيوان وغيرها .

وجعلوا إسماعيل (وهو عمه) أباً تشبيهاً له بالأب ، وقد روى الشيخان قوله عليه السلام « عم الرجل صنو أبيه » .

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبي ، وروحه التوحيد والاستسلام لله والإذعان لهدى الأنبياء ، وبهذا كان يوصى النبيون أمهم كما قال : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » .

فالقرآن يحث الناس على الاتفاق فى الدين الذى أساسه أمران أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، وثانيهما الاستسلام لله والخضوع له فى جميع الأعمال ، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم أى ليس على الدين القيم الذى كان عليه الأنبياء .

والناس يطلقون الإسلام اليوم لقباً على طوائف من الناس لهم ميزات دينية وعادات تميزهم من سائر الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى ، وقد يكون من بعض أهلهم من لم يكن مستسلماً مخلصاً لله فى أعماله ، بل قد يكون مبتدعاً مالىس منه ، أو فاسقاً عنه قد اتخذ إلهه هواه .

والإسلام الذى دعا إليه القرآن هو الذى دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدع إلى الإسلام بمعنى ذلك اللقب المعروف اليوم .

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) أى أن سنة الله فى عباده ألا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ، ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله كما جاء فى قوله : « أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ

الَّذِي وَفَى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »
وجاء في الحديث « يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » .

وقال الغزالي : إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظلمان يروى
بشرب والده وإن لم يشرب ، فالعاصي ينجو بصلاح والده .

ومن هذا تعلم أن من يخاطب أصحاب القبور حين الاستغاثة بهم بنحو قوله
(المحسوب منسوب) فقد ضل ضلالا بعيدا . وخالف ما تظاهر من نصوص الدين
التي تدل على خلاف ما يقول :

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا
وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)

شرح المفردات

الحنيف المائل ، وأطلق على إبراهيم لأنه خالف الناس جميعا ومال عن الكفر
إلى الإيمان ، والأسباط واحد سبط وسبط الرجل ولد ولده ، والأسباط من بني
إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ، وما أوتي موسى هو التوراة ،
وما أوتي عيسى هو الإنجيل ، والشقاق مأخوذ من الشق وهو الجانب ، فكان كل

واحد في شق غير شق صاحبه لما بينهما من عداوة ، والصبغة في اللغة اسم لهيئة صبغ الثوب وجعله بلون خاص .

المعنى الجملى

بعد أن دعا سبحانه العرب إلى الإسلام وأشرك معهم أهل الكتاب لأنهم أجدر بإجلال إبراهيم واتباعه ، وفي أثناء ذلك بين حقيقة ملة إبراهيم على الوجه الحق لا كما يعتقد اليهود والنصارى ، ثم بين أن دين الله واحد على لسان النبيين جميعا ، والقوارق في الجزئيات والتفاصيل لا تغير من جوهر الدين في شيء ، وقد جهل أهل الكتاب هذه الحقيقة فقصروا نظرهم على ما امتاز به كل دين من التفاصيل والتقاليد التي أضافوها إلى التوراة والإنجيل ، فبعد كل من الفريقين من الآخر أشد البعد ، وصار كل منهما يحتكر الإيمان لنفسه ويرى الآخر بالكفر والإلحاد .

الإيضاح

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) أى قالت اليهود لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها ، لأن نبيهم موسى أفضل الأنبياء وكتابهم أفضل الكتب ودينهم خير الأديان ، ويكفرون بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن ، وقالت النصارى : لا يتقبل الله إلا النصرانية لأن الهداية خاصة بها ، إذ عيسى أفضل الأنبياء وكتابهم أجل الكتب ، ودينهم خير الأديان ، وقد كفروا بموسى والتوراة ومحمد والقرآن ، ولو صح ما يقولون : لما كان إبراهيم مهتدياً لأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وأتم جميعاً متفقون على أنه سيد المهتدين وإمامهم ، ومن ثم رد الله عليهم بقوله :

(قل بل ملة إبراهيم حنيفاً) أى قل لهم : بل تتبع ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداة ، فهى الملة التى لا انحراف فيها ولا زيغ .

(وما كان من المشركين) أى ولم يكن إبراهيم ممن يشرك بالله سواه من وثن

أو ضم ، وفي هذا تعريض بأهل الكتاب وبيان بطلان دعواهم اتباع إبراهيم مع إشراكهم لقولهم عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله .

ودين إبراهيم الخنيف هو الدين الذي عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنون به .

وبعد أن أمر الله نبيه أن يدعو الناس إلى اتباع ملة إبراهيم ، وأمر المؤمنين بمثل ذلك فقال :

(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم) أى قولوا آمنا بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين مع الخضوع والطاعة لرب العالمين ، فلا نكذب أحدا منهم فيما ادعاه ودعا إليه فى عصره ، بل نصدق بذلك تصديقا جليا ولا يضرنا تحريف بعض وضياح بعض ، فإن التصديق التفصيلي إنما يكون لما أنزل إلينا فقط .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة أن أهل الكتاب كانوا يقرءون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية للمسلمين فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله . الآية .

وروى ابن أبي حاتم عن معقل مرفوعا (آمنوا بالتوراة والإنجيل ولسعكم القرآن) (لا تفرق بين أحد منهم) أى لا تؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرت بغيرها من الأنبياء ، وتبرأت النصرارى من محمد صلى الله عليه وسلم وأقرت بغيره ، بل تشهد أن الجميع رسل الله يبعثوا بالحق والهدى .

(ونحن له مسلمون) أى ونحن خاضعون له بالطاعة مذعنون له بالعبودية وذلك هو الإيمان الصحيح ، وأنتم لستم كذلك بل أنتم متبعون أهواءكم لا تحولون عنها .

(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) أى فإن آمنوا بالإيمان الصحيح بالله وبما أنزل على النبيين والمرسلين كما تؤمن به نحن وتركوا ما هم عليه من ادعاء حلول

الله في بعض البشر وكون رسولهم إلهاً أو ابن إله ، فقد اهتمدوا إلى الحق وأصابوه كما اهتمدتم ، ذاك أنه قد طرأ على إيمانهم بالله نزغات الوثنية وأضاعوا لباب ما أنزل على الأنبياء وهو الإخلاص والتوحيد وتركية النفس وتمسكوا برسوم العبادات وتقصوا منها وزادوا عليها مما بعدوا به عن مقاصد الأديان من حيث يدعون العمل بها كاملة غير منقوصة .

(وإن تولوا فإنما هم في شقاق) أى وإن أعرضوا عما تدعوهم إليه من الرجوع إلى أصل الدين ولبه ، وفرقوا بين رسل الله فصدقوا ببعض وكفروا ببعض ، فإن أمرهم يكون محصوراً في المشاقة والعداوة وكل ما يوسع مسافة الخلف بينهم وبينهم .
(فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) أى فسيكفيكم الله إيذاءهم وسيء مكرم ويؤيد دعوتك وينصرك عليهم نصراً مؤزراً .

وقد أنجز الله وعده للنبي والمؤمنين ، فقتل وسى بنى قريظة ، ونفى بنى النضير إلى الشام ، وضرب الجزية على نصارى نجران ، وهو سميع لما يقولون بألسنتهم ويبدونه بأفواههم من الدعوة إلى الكفر والضلال ، عليم بما يبطنون لك ولأصحابك المؤمنين من الحسد والبغضاء .

(صبغة الله) أى صبغنا الله وفطرنا على الاستعداد للحق والإيمان بما جاء به الأنبياء والمرسلون ، ولا تتبع آراء الرؤساء وأهواء الزعماء وتقاليدهم الوضعية ، وهو زينتنا التي بها تتحلّى كما يتحلّى الثوب بالصبغ .

(ومن أحسن من الله صبغة) أى لا أحد تكون صبغته أحسن من صبغة الله ، فإنه هو الذى يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم به من أدران الكفر وينجيهم من الشرك ، فهى جماع كل خير وبها تتألف القلوب والشعوب وتركوا النفوس .

أما ما أضافه الأخبار والرهبان من أهل الكتاب إلى الدين فهو من الصبغة البشرية والصنعة الإنسانية التي تجعل الدين الواحد مذاهب متفرقة ، والأمة شيعاً متنافرة .

(ونحن له عابدون) ولا نعبد سواه ، فلا تتخذ الأحزاب والرهبان أربابا يزيدون في ديننا وينقصون ، ويحلون ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا صبغة التوحيد ويثبتون مكانها صبغة البشر التي تقضى إلى الإشراف بالله واتخاذ الأنداد له .

وفي الآية إيماء إلى أن الإسلام لم يشرع أعمالا خاصة يتميز بها المسلم من سواه ، كما شرع النصارى المعمودية ، بل الموعود عليه ما صبح الله به الفطرة السليمة من الإخلاص وحب الخير والاعتدال كما قال تعالى : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ؟ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) .

شرح المفردات

الحاجة المجادلة بدعوى الحق لدى كل من المتخاصمين مع إقامة الحجة على ذلك ، في الله أى في دينه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان في الآيات السابقة أن الملة الصحيحة هي ملة إبراهيم وليست هي باليهودية ولا النصرانية ، بل هي صبغة الله التي لا دخل لأحد فيها ، وهي بعيدة عن

اصطلاحات الناس وأوضاعهم ، ولكن نشأت بعد ذلك أوضاع الرؤساء فطمست ما جرى عليه الأنبياء حتى خفيت أوامرهم فيها إلى أن أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم ودعا الناس إلى الرجوع إليها وأرشد إلى الحق الذى عليه صلاح المجتمع فى دينه ودنياه - شرع هنا يبطل الشبهات التى تعترض سبيل الحق ، فلقن نبيه الحجج التى يدفع بها تلك المفتريات .

روى أن سبب نزول هذه الآيات أن اليهود والنصارى قالوا : يجب أن يكون الناس لنا تبعاً فى الدين ، لأن الأنبياء منا والشرعة نزلت علينا ولم يعهد فى العرب أنبياء ولا شرائع ، فرد الله عليهم بما ستعلم بعد .

الإيضاح

(قل أتُحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ؟) أى أتدعون أن الدين الحق هو اليهودية والنصرانية ، وتقولون حينئذ : « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » وحينئذ آخر تقولون : « كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا » ومن أين جاءكم هذا القرب من الله دوننا ، والله ربنا وربكم ورب العالمين ، فهو الخالق وجميعنا خلقه ، وإنما يتفاضل الناس بأعمالهم ، وآثار أعمالنا عائدة إلينا خيرا كانت أو شرا ، وآثار أعمالكم كذلك لكم على هذا النحو ، ونحن له مخلصون فى أعمالنا لا نتغنى إلا وجهه ، أما أنتم فقد اتكلتم على أسلافكم من الصالحين وزعمتم أنهم شفعاء لكم عند ربكم مع انحرافكم عن سيرتهم ، إذ هم ما كانوا يتقربون إلا بصالح العمل وصادق الإيمان ، فاجعلوهم رائدكم وانهبوا نهبهم تناولوا الفوز والسعادة .

وخلاصة ما سبق — أن روح الدين التوحيد وملاك أمره الإخلاص العبر عنه بالإسلام ، فإذا زال هذا المقصد وحفظت الأعمال الصورية لم يبق ذلك شيئا ، وأهل الكتاب أزهقوا هذا الروح وحفظوا الرسوم والتقاليد ، فهم ليسوا على شيء من

الدين ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بما أحيا ذلك الروح الذى كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين ، فهو الذى كمل شريعتهم بشريعته التى تصلح لجميع البشر فى كل زمان ومكان .

(أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى) أى أتقولون : إن اختصاصكم بالقرب من الله دوننا هو من الله وهو ربنا وربكم ، أم تقولون إن امتيازكم باليهودية أو النصرانية التى أتم عليها إنما كان بأن هؤلاء الأنبياء كانوا عليها ، فإن كان هذا ما تدعون فأنتم كاذبون فيما تقولون ، فإن هذين الاسمين إنما حدثا فيما بعد ، فما حدث اسم اليهودية إلا بعد موسى وما حدث اسم النصرانية إلا بعد عيسى ، فكيف تزعمون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا ، وقضية العقل شاهدة بكذبكم ؟ .

(قل أأنتم أعلم أم الله) أى أأنتم أعلم بالمرضى عند الله ، أم الله أعلم بما يرضيه وما يتقبله ؟ لا شك أن الله هو العليم بذلك دونكم ، وقد ارتضى للناس ملة إبراهيم وأنتم تعترفون بذلك وكتبكم تصدقه قبل أن تحيى اليهودية والنصرانية ، فلماذا لا ترضون لأنفسكم هذه الملة ؟ .

(ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) أى لا أحد أشد ظلما ممن يكتم شهادة مثبتة فى كتاب الله تبشر بأن الله يبعث فيهم نبيا من بنى إخوانهم وهم العرب أبناء إسماعيل .

وهم لا يزالون يكتمون ذلك ، فينكرون على غير المطاع على التوراة ، ويحرفون على المطاع عليها .

وخلاصة ما سلف — أنه أقام ثلاث حجج تدحض ما ادعوا :

- (١) قوله : « وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » .
- (٢) قوله : « أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ » الخ .
- (٣) قوله : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً » الخ .

(وما الله بغافل عما تعملون) أى أن الله لا يترك أمركم سدى ، بل يعذبكم أشد العذاب ، وهو محيط بما تأتون وما تذكرون ، ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد والتهديد عقب التقرير والتوبيخ .

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) أى أن جماعة الأنبياء قد مضت بالموت ، ولها ما كسبت من الأعمال ولكم ما كسبتم منها ، ولا يسأل أحد عن عمل غيره ، بل يسأل عن عمل نفسه ويجازى به ، فلا يضره ولا ينفعه سواء ، وهذه قاعدة أقرتها الأديان جميعا وأيدها العقل كما قال : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

لكن غلبة الجهل جعلت الناس يعتمدون فى طلب سعادة الآخرة وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين ، وساعدهم على ذلك رؤساء الأديان فأولواهم نصوص الدين اتباعا للهوى ، ومن ثم جاء القرآن يقرر ارتباط السعادة بالكسب والعمل وينفى الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يقتد بهم فى صالح أعمالهم ، وقد حاج بذلك أهل الكتاب الذين يفتخرون بأسلافهم ويعتمدون على شفاعتهم وجاههم ليقطع أطعاهم فى تلك الشفاعة .

وعلىنا معشر المسلمين أن نجعل نصب أعيننا ورئدنا فى أعمالنا تلك القاعدة — الجزء على العمل — ولا نفتقر بشفاعة سلفنا الصالح ونجعلها وسيلة لنا فى النجاة إذا نحن قصرنا فى عملنا ، فكل من السلف والخلف مجزى بعمله ، ولا ينفع أحداً عمل غيره .

وفقنا الله تعالى لما يحبه ويرضاه « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ لِلَّهِ » .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

تم تصنيف هذا الجزء فى الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى وستين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد ولد عدنان فى مدينة حلوان من أرباض القاهرة بالديار المصرية .